بلاغٌ

ضِدَّ المواطنةِ الرقيقة

تأليف

فاطمة أديب الصالح

العبيكان
Obeikan

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الصالح، فاطمة محمد أديب
بلاغ ضد المواطنة الرقيقة./ فاطمة محمد أديب الصالح. - الرياض، ١٤٢٧هـ
١٣٧ص؛ ١٤ × ٢١سم
ردمك: ٦-٠٩٣-٥٤-٩٩٦٠
١- القصص القصيرة العربية - السعودية أ- العنوان
ديوي ٨١٣,٠١٩٥٦٥ ١٤٢٧/ ٤٨٧٥

رقم الإيداع: ١٤٢٧/ ٤٨٧٥
ردمك: ٦-٠٩٣-٥٤-٩٩٦٠

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر
شركة العبيكان للأبحاث والتطوير
الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة
هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨
ص.ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

امتياز التوزيع
شركة مكتبة العبيكان
الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة
هاتف ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٥٦٠١٢٩
ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

الإهداء

إلى رفقة الروح في طريق بدت

لنا طويلة صابرتم خلالها معي

وصبرتم عليّ

أبنائي

مارية وسيرين وعبد الله

بلاغ ضد المواطنة الرقيقة

العاصمة:

جهاد.. جهاد.. أما كان يجدر أن تُسمِّي أحدَ أبنائِها (جهاد)..

لكن (جهاد) الواقفَ عن يسارها شابٌ تقوَّست كتفاه، وبان الإهمالُ على شعره الأسود السبط الكثيف.. وعلى شعر ذقنِه .. اتسعت عيناه فوق اتساعِهما، وهما تدوران في محجرَيهما بنظرات قلقة مرةً، فزِعة مرة، مستكينة مرة، ومعصماه في قيد لا يكاد يسمح لكفّيه بالإمساك بكيس شفّاف حُشِي بما يمكن أن يكون ملابس نومه وأشياءَ أخرى.. بان الاتّساخ على قميصه الأزرق الفاتح، وبنطالِه الكحلي، و انتعل حذاءه بلا جوربين.

وسيم.. واسع العينين كالأطفال.. متوسط القامة، دلّها مظهره ونبرة صوته على تربية كريمة وعائلة كريمة.

خاطبه صوت عن يمينها: ما اسمك؟

ـ جهاد، سيدي..

كل الرجال يضيفون هنا إلى إجابتهم كلمة سيدي.. إلا هي، يا لها مهزلة أن تشفع لها أنوثتها ألا تقول (سيدي)، وأن تقف أمامهم وِقفة لا استكانة فيها ولا تذلّل.

ـ ما قصتك، من أين أتيت؟

ـ أوقفت على الحدود سيدي.. منذ عشرين يوماً.

استطاع حساب أيامه..

أُعطي أمرٌ من صوت بِفكّ قيده.. أمسك الشابّ الأشقر الذي يرسم شارباه نصف دائرة حول فمه.. والذي مازال منذ وصولها.. يروح ويجيء أمام الأبواب الحديدية السود.. أمسك بقيد جهاد، وحرّر يديه منه بعد أن ظلّ مقيّداً طوال رحلة استغرقت ساعتين..

عشرون يوماً قضاها جهاد في غرفة ما حيث كانت هي أيضاً.. غرفتها كانت معزولة عن بقية الغرف التي تخصَّص للرجال على ما يبدو.. سمُّيت غرفتها غرفةَ انتظار..

المدينة س:

حسن أن تكون امرأة.. اليومَ تجده أمراً حسنا أكثر.. لأنها امرأةٌ رقيقة القلب إلى درجة مؤذية.. تحاول جهدها طرد صورة ابنتها تتمسّك بها.. وهي تقبلّ وجهها الرقيق المحمرّ من البكاء.. تتجلَّد ما وسِعَها التجلّد، تمنع عينيها حتى أن تدمعا.. يقول ذو اللباس الكاكيِّ الآمرُ (بترحيلها) إلى المركز مخاطباً عمّ الصغيرين: انظر إليها إنها لاتبكي، مابك أنت؟! ثم احمرّت أرنبة أنفه الكبير فاستدار إلى مكتبه الكبير القذر القديم، وراح يتناول المناديل ليتمخّطَ ويصدرَ أصواتاً مفزعة ويخفيَ معظم وجهه ويلعنَ مهنته، الآخر.. السائق، لم يُخفِ دموعه..

العاصمة:

أصبح جهاد بلا قيد، يقف في زاوية ممرٍّ قليلِ الإضاءة خلفَهما، جهاد وهي، جدار حديدي أسود لا يطال السقف.. تجلس هي على كرسيّ أسودَ من الجلد دون ذراعين.. لكنه كالعادة تعرض لعملية ذبح يتّضح فيها الإصرار والتعمُّد.. ذهب ما يقارب ثُلُثي جلده، وظهرت أحشاؤه من الإسفنج المسَمرِّ.. كل كرسيّ قُدّم لها كان مكسوراً أو مذبوحاً، كل مكان دخلته كان قذراً وكئيباً.

المدينة د:

يكفي امرأة مدللةً أن تشاهد مكاناً قذراً تعمّه الفوضى ومظاهرُ فقر رهيب، أن تشاهدَ المكاتب الصدِئةَ الجوانب.. الحائلةَ الألوان.. أن تشاهدَ الأرفف منبعجةً تحت أوزان الورق الأصفر الذي يضمّ سيرة عشرات الألوف من الأفراد الذين قد يمسّون أمن الوطن حتى دونَ قصد!

«نعم، ينبغي ألا يُمَسَّ أمنُ الوطن وحُماةُ الوطن بحال.. وفي سبيل ذلك لا بأس في أن يبادَ الآلاف أو يسجنوا ويعذَّبوا.. لا بأس في أن تُنتزع أمٌّ من بين صغيريها ويحيط بها ذوو الملابس العسكرية؛ وهما ينظران».

كل شيء كان يوحي لها بأن المجهول القادم جدٌّ مخيف.. رغم الدماثةِ التي اصطنعتها تلك الأصواتُ الخشنة، واللينِ الذي تظاهرت به، ساقهما العمُّ أمامه.. ليبعدَهما عنها مائتين من الكيلومترات.. ولتشعرَ

ببعض الطمأنينة كلما ابتعدا.. تخيلت بادئَ الأمرِ أن يبقَيا معها بعد توقيفِها بصدد بلاغٍ ضدّها اقتضى التحقيق معها.. ولابدّ أن ترسَل من هذا المركز الحدوديّ إلى حيثُ هي مطلوبة.. ودون أن تعرف أين؟

تخيلّت.. لكن الجدران والسلالم والوجوه الجامدة التي لا تجرؤُ على رسم أيّ تعبير، جعلتها تفرح بوصول العمّ ثم ابتعادِ الصغيرين.

العاصمة:

جهاد يقف في الزاوية.. ربما كان يرتجف، يحاول أن يبدوَ مؤدباً مهذباً مسكيناً، الباب الأسود قبالتَها يفتح ويغلق باستمرار.. الشابّ الأشقر ذو الشاربين الطويلين يذهب ويجيء أمامها بانتظام وكأنه لا يستطيعُ التوقّف.. يضع يديه خلفَ ظهره.. يحني ظهره قليلاً.. تكاد تظنّ أنه حزين.. ولكن لم؟ إنه يستلم الموقوفين القادمين من المراكز الأمنية التابعة للعاصمة.. ينتزع قيودهم، ليقفوا في انتظار مجهولٍ آخرَ.. يفتح الباب بالمفتاح، ثم يمدّ يده من كُوّة صغيرة في أعلاهُ ليفتح رِتاجاً في الجهة المقابلة.. فإذا دخل الداخل وقد يكون موظفاً وقد يكون موقوفاً.. عاد فأقفل الباب مرتين ثم مدّ يده إلى الداخل ليعيدَ الرتاج.. الحركة دائبة.. يفتح باباً في الجدار الناقص خلفها، يستقبل، يقفل.. يفتح الباب المقابل.. يقفل ويرتج.. ثم يروح ويجيء، يجيء ويروح.. ويداه خلفَ ظهره..

خرج من الغرفة المواجهة تلك.. الشابُّ الذي سلّمها هنا.. ومعه رجلٌ يسألها: يا أختي.. لك عندنا جوازُ سفر، آلة تصوير، أربعمائة وستون..

ـ وحافظةُ صور..

ـ نعم، وحافظة صور، أجاب موظف آخرُ كئيب الوجهِ إلى درجة لا يمكن النقاش فيها، يرتدي حلّة بنّية بكُمّ قصير.

وسأل مرافقها في الرحلة بمرح: هيه.. تريدين شيئاً؟

ـ لا..

ودّع صاحبه الأشقر ومضى.. وأُرتِج البابانِ من جديد..

لا شيء غيرُ الكرسيّ الذي تجلس عليه.. وخزانةُ أدراجٍ معدنية قديمة وصوتُ البابين.. والشابّ الأشقر ذو الشعرِ السبط الجامد فوق جمجمته، والشاربين اللذين يرسمان حولَ فمه نصفَ دائرة.. والحرُّ الذي وضَح هنا فقط..

«إلى متى تستطيع الثبات.. دون دموع، ودون اعتراض.. إلى متى تتناسى منظر الصغيرين اللذين أصبحا دون أمٍّ كما هما دون أبٍ منذ سنواتٍ ثمان؟ إلى متى تتجلّد..؟ يبدو أن ذلك لا يكلّفها كثيراً.. شيء في داخلها كان يؤكّد أن كل ما يحدثُ حولَها مضحكٌ وتافه .. تحسّ بالإرهاق ولا تحسّ بالجوع رغم أنها لم تأكلْ منذ يومين.. غرفة الانتظار التي أمضت فيها ليلة أمس لم تتذوّق فيها شيئاً».

المدينة س:

دخل أحد الفتيان وبيده صحنٌ مغطّىً برغيف خبز.. وقال بخجل

وأدبٍ وهو ينظر إلى الأرض: لا تؤاخذينا.. هذا طعامُ العسكرية..

الخبز جيّد ونظيف.. ولكن ماذا يوجد تحته.. وفي أية آنية؟

«من تلك التي لا تجدُها في بيتها لتطعمَ فيها قطة أو كلباً.. رأت أنا تستحقّ.. وهم يعرفون.. يعرفون أنها تعيش حياة الرفاه والرخاء الذي لا يجده ملايين المسلمين في هذا العالم.. تستحقّ».

لذا فهي غير دهِشة.. ولا تشعرُ بالقرف ولا التعاسة من علب السمن الفارغة وعلبِ الورق المقوى.. والأسلاكِ الكهربائية الثخينة الملتفّة في سواد الأفاعي.. في ظرف آخرَ كان من الممكن أن يغلبَها القيء.. أما هنا فلا..لا من الوسادة التي كان لها لون.. ولا من الغطاء الصوفيّ الأسود الذي اضطُرَّت إلى استعماله..ولا من دورة المياه القبيحة التي لم تجد فيها ماء هذا الصباح، ولا من الأحواض القذرة التي غسلت وجهها فوقها مساءً حين سُمح لها بمغادرة الغرفة.. وكلّما تذكرت همّة الفتيانِ في غسيل أرض الغرفة تلك، ضحكت في سرّها.. ترى لم فعلوا ذلك؟ الأعلى رتبةً يصرخ في رفاقه ويبدون في سنّه.. لا يزيدُ عمر واحدهم عن إحدى وعشرين سنة.. هيا.. هنا، أعِد.. نظِّف هناك.. صبَّ ماء هنا.. بهمّة تتناسب مع أجسادهم الفتيّة القويّة، حفاة.. يصبّون الماء، ثم يجفّفونه، يتحركون في وضعيّة القرفصاء..

الأشياء حولها واضحة.. لا شيء يثير القلق أو الرعب.. الجدران قذرة نوعاً.. تملؤها كتابات مضحكة مبكية.. «حتى الطيّانة ينزلون السجن» و «كلّ ذنبي أني أحببت شاباً مسلماً وتزوجته وأنا مسيحيّة»

وبخطّ كبير جميل يختلف كثيراً عن غيره «إذا دعتك قدرتُك إلى ظلم الناس فتذكَّر قدرة الله عليك» إذا كان ثمةَ من يعرف الله في هذا المكان ففي هذا عزاءٌ كبير لها..

العاصمة:

لعله السجنُ.. بل هو السجن، خلف هذا الجدار الأسود يكون السجن.. وتحت المكان الذي تنتظر فيه.. يختفي أبناء وإخوة وأزواج.. وأحياناً نساء.. هم بيننا أحسنُ الناس وأحبّهم..

هذه الغرفة الموكلُ بابُها إلى هذا الشاب الذي يتحرّك كرقّاص ساعة جدار.. هي البرزخ الفاصل ما بين حياة وحياة.. ما بين السماء والشمس والهواء.. وبين الظلم والظلام والعفونة.. من هنا مرّ الآلاف ويمرّون.. يعبرون هذه الغرفةَ الصفراء الحزينة الحزينة.. يرتجفون بين جدرانِها وهم يتساءلون.. متى ستعود إليهم هذه الأشياءُ التي يسلّمونها أولاً بأول لهذا الموظف ذي الوجهِ الجامد جداً.. الذي أمر بإدخالها.. وأرتج الباب خلفها.. عدةُ شبان يدورون في الغرفة الصغيرة بثقة وصمت.. واحد يدير وجهه إلى الجدار وثمة خيط حول رأسه..

سُمح لها بالجلوس إلى جانب مروحة كهربائية بعمود.. تطقطق بانتظام يؤكد قِدَمها مثل الكرسيّ المشوَّه والمكاتب والأدراج التي كتبت عليها حروف الهجاء بالترتيب، خيوط العناكب تملأ زوايا السقف.. خلفها على اليمين قليلاً امتدادُ الجدار الأسود وباب أسودُ آخرُ.. وممرٌّ ضيّق معتم يطلّ عليه باب أسودُ ثالث بكُوَّة مفتوحة.. رأت فيها

رأساً حليقاً لشاب صغير بتطاول كأنّما يستطلع، ما الذي أتى بامرأة يلفُّها السواد من رأسها حتى قدميها إلى هذا المكان؟ تلك زنزانةٌ ولا شكّ.. تلك هي واحدةُ الزنزانات التي قرأت عنها.. ترى هل ستعبر باباً كهذا.. وتُلقى وحيدةً في مساحة صغيرة باردة صامتة.. صامتة.. بعد أن انتُزعت منها حتى ساعةُ يدها وخاتمُ الزواج.. طرق سمعها فجأةً صوت يستعطف: الله يخلّيكم ماء.. نقطة ماء.. اكتشفت أنه الشاب الذي رأته يدير وجهه للحائط.. مغلولَ اليدين معصوبَ العينين.. وأنه يرجو نقطة ماء..

ـ اسكت.. اخرس.. هش، قلت لك اسكت، كفى.. ردّ عليه فتى ممتلىء ذو شعر أسودَ جعْدٍ ووجهٍ لا يحمل طابع عنف أو قسوة، توحي نبرته أنه يؤدّي مَهمّة أتقنها منذ زمن حتى فقدت معناها وأبعادها.

آه أيتها القافلةُ الحزينة التي لا حاديَ لها ولا حارس.. لا تنتظرُ محطة ولا تعرف نقطة وصول.. أرجلٌ تَخُبّ في الظلمة.. في رمال ملتهبة حيناً، متحركة حيناً.. متى وكيف تُراها تصل؟!

المدينة د:

كانت أوقاتاً بطيئة ثقيلة مخيفة لأم، لامرأة لا تعرف من الرجال إلا محارمَها، لا تخاطبُ إلا من وثقت بدينه من أقاربها.. لا تتخيّلُ أن تكونَ وحدَها بين رجالٍ لا تعرفُ عنهم شيئاً..بل سمعت أسوأ الأخبار. ولأمر مّا وللطف من الله.. كانت تحسّ بأنها تحلُم .. تعيش كابوساً

يتطاير فيه الذباب من حولها.. يعلو طنينه مرّةً ويخفت تارة، دون أن يجرؤَ على الاقتراب منها.. كابوس كانت واثقة من أنها ستصحو منه وهي بين صغيريها اللذين ناما وحيدَين أمس.. انتحبتِ الابنة.. واحمرّت عينا الصغيرِ ودمَعتا وهو كالمذهول.. يلتصق بها .. لا يفهم.. إلى أين تذهبين.. لم تبقَين هنا.. تورّدت بشرته الغضّة.. يخفي عينيه ببعض أصابعِه ثم يتركهما.. لم تضمَّه كثيراً.. خيرُ لها أن تقصّرَ هذه اللحظاتِ ما استطاعت.. هي لا تدري ما تهمتُها وكم سيطول غيابها.. وهي لا تعرف بين يدَي من ستكون.. وهي بين ناس ربما وجدوا لباسها السابغ وحدَه جريمةً قد تطالها قوانين الأرض في بعض بقاع الأرض..

يجب أن تعودَ إليهم.. يجب أن تعودَ إلى الصغيرين والأهل.. أيعقل أن يعيشا دون أمّ كما هما منذ سنوات دون أب.. كانت تصرخ وهي صامتة: يجب أن أعودَ أيها المجرمون المساكين، أيها الضحايا القساة، أيها الجفاةُ القذرون.. حتام أتنقل بين أيديكم من مكان إلى آخرَ، من مكتب قذر إلى مكتب قذر.. من قبو إلى سجن إلى غرفة مظلمة..

المدينة س:

مصباح السقف في الغرفة مكسور، لكنها اقتيدت إليها بعد الظهر.. بعد تسليم أشيائها بدقة وأمانة متناهيتين إلى حدّ يثير الغثيان.. بدأت ليلتها عصراً.. لم يكن أمامها سوى الاستناد إلى الجدار على السرير الحديديّ تقلب بقايا مجلة معروفة.. قرأتها كلها

رغم جفافِ موضوعاتها ووضوح توجهاتِها.. تيمَّمت.. صلّت وقد خففت عنها بعضَ الشدة نظافةُ الأرض.. غفت قليلاً.. صحت على ضجيج خارجَ الغرفة.. صخبٌ وشتائمُ مُقذعة استمرّت كلَّ ساعات الليل الأولى... كانوا يتسلَّون.. أولئك الفتيةُ المؤدّبون الذين غسلوا الأرض وقدّموا الطعام .. بل لقد أهداها أحدهم قلماً مستورداً.. فهمت من حواراتهمُ الصاخبةِ أنهم كانوا يتبارَون في قذف موسى إلى الجدار لثبيتها فيه: تسقط الموسى بعد أن يلامسَ رأسها الجدار.. فترفع وتقذف من جديد.. تسقط فترفع ثم تقذف فتضرب الجدار بقوة.. تسقط فيتناوبها الفتية مابين هرجٍ ومرج وضحك لا قرارَ له جديرٍ بهذا المكان.. كلّ هذا أمام بابِ الغرفة المقفلِ من الخارج بقفل مما يُستخدم للأقفاص الحديدية، فالباب أصلاً منزوع المِقبض..

طال اللعب والصراخ.. أصوات رجال صغار.. لهم صور رجال.. قذرون يحرصون على ارتداء الجوربين والحذاء لدى مقابلة (المعلم).. ضائعون.. بهذا تنبئها ضحِكاتهم .. لماذا اجتمعوا هنا هكذا.. بهذه الكثرة.. إنهم من مدن مختلفة.. ماذا يعملون؟ يحضرون القهوة والشاي للمعلم وضيوفه من أمثالها.. يمسحون الأرض.. يدخلون موقوفاً ويخرجون آخر..

ثم غمرت العتمة الغرفة.. أخذت تتأمل النافذة العالية الكبيرة المطلّة على طريق يؤدّي إلى القبو حيث هي الآن .. إن قضبانها الحديدية ترسم معينَّات من الفراغ.. مصراعاها مفتوحان.. مكسورا

الزجـاج.. مـا بقي منه ملطَّخٌ بطلاء أبيض.. تسلل ضـوء نيـونيّ من الطريق.. بدّد كثيراً من الظلمة.. اعتدال الجوّ ورقّته مما تحمد الله عليه.. صلّت.. أكثرت من الدعاء.. لوالديها.. لإخوتها وأخواتها.. لكل من تحبهم ويحبونها.. لكل من أسهم في زرع الطمأنينة والصبر في قلبها خلال هذه الساعات.. كم هو الابتلاءُ محبوب أحياناً.. وكم هو الدعاء عالمٌ لا نهايةَ له.. يغنيك عن عالم الرخاء والدعة كاملاً.. يسعدك ويرضيك ويسعفك بالدمع الذي يغسل أدران اللحظاتِ الصعبة وشقاءها.

وأحست بعد الدعاء والدموع براحة وخفّة.. عادت إلى السرير تحاول النوم وهي تتلو ما اعتادته كلَّ ليلة.. لكنه هذه الليلةَ كانت له معانٍ مختلفة، وكان لكل كلمة صوتُها الجديد ووقعها الجديد.. بدا لها دعاء كل ليلة أشبهَ باكتشاف يحبس الأنفاس ويبهر التفكير: اللهم أسلمت نفسي إليك، وفوّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك.. رغبةً ورهبة إليك.. لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك..

ماذا يعني احتجاز امرأة في غرفة نظيفة صحّية كهذه.. امرأة ورد بلاغ ضدَّها وقد انتهى دوام الموظفين قبل أن يتمكّنوا من اتخاذ الإجراءات اللازمة لإرسالها إلى التحقيق.. فما العمل ؟ من سوء حظّها أن (المعلم) في هذا المركز غادر مكتبه وهي في الطريق إليه.. ويبدو أنه لم يعد حتى الآن وها هي ذي تنتظر.. ربما حتى الصباح.. ربما أكثرَ من صباح..

العاصمة:

يكاد القلق ينتهب كلّ خلايا تجلّدها وصمتها.. يطير بها إلى العتمة القريبة جداً منها.. يعود بها في دوار رهيب إلى الكآبة الصفراء المحيطة بها من كل جانب.. إلى الوجوه الجافّة المحنّطة.

آلاف الشبان عبروا هذه الغرفة، جلسوا جِلستها.. معاذَ الله بل وقفوا (فهي هنا تلقى من التكريم والاحترام غايتَه.. تخاطَب بأدب وتدعى إلى الجلوس حيث حلّت!) آلافٌ من ذوي الوجوه المؤمنة والنفوس الطاهرة.. عرفوا هذه الغرفة التي أرتجت نافذتُها الوحيدة وكأنها لا تفتح أبداً.. تكاد تقرأ نظراتِهم منقوشةً على الجدران.. تسمع أنفاسهم المضطربة.. تحسّ أنّ أرواحهم تركت بصماتِ نبلِها في هذا الهواء، رغم روائحِ التدخين وعرق الرجالِ الذين لا يتوضؤون..

هنا لعلّه وقف والد الصغيرين.. سئل ما اسمُك وما عمرك وماذا تملك.. أُخذت منه أشياؤه البسيطة لِتحفظَ في مكان آمن إلى أن يستلمَها بعد عشرِ سنوات أو عشرين.. أو لا يستلمُها، هنا سمع الشتيمة الكريهة.. والعباراتِ القذرة.. ربما أحسّ، معصوبَ العينين، ضربةً أو لكمة تدفعه أمام الزبانية الذين أدهشها جداً أنهم يمشون في الطرقات، يتحدّثون مثلنا، يشترون خبزهم ووجبتهم الصباحية مثلَ غيرِهم من البشر.. عيونهم تطرِف ولهم ضحكاتٌ عالية تجلجل، فيخيل إليك أنهم من السعداء.. يمشّطون شعورهم.. ويحلقون لحاهم على الأغلب، كما يطيلون ظفر الخنصر حتى يغدوَ أشبهَ برأس حربة

صغيرة.. يمزحون.. حتى مع الموقوفين والموقوفات..

في الطريق إلى العاصمة:

ـ هيه.. أعجبتك المدينة..

ـ حتماً.. أنت من هنا؟ سألته بهدوء مرح..

ضحك الفتى وهو يعبث طول الطريق بآلة التصوير التي هي جزءٌ من الأمانة التي يجب تسليمها في العاصمة..

ـ فيها فلم؟

ـ نعم..

كانت وحدَها في المقعد الأوسط من سيارة (بيجو) جيدة ,خلفَها ثلاثةُ رجال صعِدوا أمامها والأغلالُ تربط أحدهم بالآخر.. أحدهم كان جهاد.. تمنّت طوال الطريق أن يتفوّهوا بحرف، أن تسمعَ أنفاسهم.. أبداً.. كانوا.. ولم يكونوا .. أمامها شابان أحدُهما السائق الأشقر.. بينهما رشاش.. يتلمَّسه أحدهما من وقت لآخر.. خلفها ثلاثةُ رجالٍ فزِعون.. والطريق إلى العاصمة يتناقص..

العاصمة:

أمسك ذو الوجه المحنّط والحُلّة البنية بحقيبتها، ولفّ على ذراعها الطويلة ورقة باسمها.. يعمل برويّة وعناية.. وقف على أطراف أصابعه يتطاولُ ليستطيعَ إلقاء الحقيبة فوق كومة من أمثالها ملقاةٍ بغير نظام فوق خزانة حديدية..

ـ سأحفظها لك هنا..

بعد الآن لن تعرفَ الوقت.. لن تعرف كم مرّ مذ وطِئت قدماها أرض الوطن.. وكم ساعةً تبني جدار الزمن بينها وبين صغيريها.. كم سيطول هذا الجدار.. كم سيرتفع.. كم ستبلغ قسوته واسوداده أمام عينيها الذابلتين؟

اصطكّت ركبتاها حقّاً.. أحسّت بصوتها يذهب.. بما يشبه الشلل في أطرافها حين تبيّن أن الإجراءاتِ انتهت.. تظاهرت بأنها تتأمّل الجدران والأشياء.. رفعت رأسها وحاولت أن تبدوَ ثابتة.. أن تنسى ما بها من إرهاق.. أرادت أن تقول بصمتها لست أبالي.. فعلاً لم تكن تبالي رغم ما تشعر به من الخوف.. كيف تفسّر هذا حتى لنفسها.. إنما هي اللحظاتُ الفاصلة دائماً مخيفة.. ماذا ستسمع اللحظة؟ عن يمينها يفغر السجن فاه.. ويمكن أن تلقى به مدّة ريثما يتمّ التحقيق.. والمدّة على ما عهد هذا الوطن لا حدّ أدنى لها ولا أقصى.. ربما أرادوا لها قدْراً آخرَ من التأديب يجعل الحديث معها فيما بعدُ أكثرَ سهولة..

ثم لمحت ثلاثة شبانٍ معصوبي العيون يتلمَّس كلّ منهم الآخر، أفواه مفتوحة وأرجل حافية يُدفعون إلى حيث تُعِدُّ نفسها للذهاب..يلذع فؤادها مشهد الشبان الثلاثة.. يخترق الجلد واللحم والعظام كنصل قاس بارد لا يمكن ردُّه.. يلامس شغاف القلب ثم يعبره إلى حيث الدم ينتفض ويرتجف دون نظام.. آه يا أبناء وطني الحبيب.. ماذا فعلتم لتبتلعَكم الظلمة دائما.. أيها المقهورون.. أيها الصامتون.. أيها الموسومون بميسَم حسنٍ وأصالة لا يخفى.. أين تُلقَون؟

الرابع القديم يكرّر: قطرة ماء.. الله يخليكم ..

مازال اسم الله يذكر هنا..

ـ خذها إلى (الصالون)..

ـ تفضَّلي..

عبر بها الباب الذي دخلت منه..

لا تكاد تصدق أنها أنهت هذه اللحظات.. وتبين أن (الصالون) هو حيث كانت مع الشاب جهاد وحارس الأبواب الحديدية السود.

فوج آخرُ كان يدخل من الباب الخارجي.. شبّان معصوبو الأعين.. مضطربو الخطوات.. ولم تعُد تميّز بين الشفقة والتأديب حين قال قائل: أدِرِ الكرسيّ... وأُدير كرسيُّها بحيث يصبح ظهرها يسارَ الداخلين.. لم تعد تراهم.. استدُعيَ (جهاد) إلى غرفة ذي الوجهِ المحنّط التي أخرجت منها للتوّ.

صمت المكان.. غُلِّقت الأبواب.. والحارس الأشقر يعيد يديه خلف ظهره.. ليعود رَقّاص ساعة كما كان..

لم لا تبكي مادامت تتألم .. وقد اجتمع عليها حزن عقد من الزمن.. تجمّع وتكثّف واختُزل في لحظات.. هذا ما كان ولا زال يجري مذ وعت .. أرتال تعبر هذا الباب.. ولا تعود .. لا تعود.. ربما كان زوجها أحد العابرين يوماً قبل أن يستقرّ في السجن الشهير.

انهمرت دموعها.. انصبَّت فجأة وكأنها كانت تنتظر الإذن.. دون صوتٍ تغسل وجهها بعذوبتها المالحة.. وجهها إلى الجدار.. عن يمينها جدار السجن الأسود.. عن يسارها نصف جدار.. خلفها يتعثّر معصوبو العيون مضطربو الخطى.. كم ذا يتحمّل قلب أم .. كم ذا يضطرب ثم يصمت.. ثم يعلن احتجاجه الأخير.. فلا تملك له إلا دمعَها الحار.. تبرّد به حيرته وتخفّف من شجنه..

اقترب منها الشاب الرقّاص: ما اسمك؟ أجابت بهدوء وهي في حمّى رثاء للنفس لا تفلح في مقاومتها وتكاد تستسلم لمزيد من البكاء.. ومن أين أتيت.. أجابت بأدب فعلى هذا وطّنت نفسها، وهي تمسح دموعها بظاهر كفها.. يجب ألا تستثير أي قدْر من الحقد أو الغيظ.

عاد إلى مَهمَّته وهو يهمهم..

لماذا يسأل.. كلُّهم يحقّ لهم أن يسألوا مهما صغُرت أسنانهم ومراتبهم في هذا العمل الذي احتاج هذه الأعدادَ الهائلة من الفتيان والرجال.. من السائقين والإداريين والمحققين والسجانين والمرافقين، مما تستطيع تسميته من أعمال وما لا تستطيع .. أترى هذا الشابُّ أزعجه بكاؤها.. ذكّره إنسانيته.. لا زال في سنّ غضة ربما تسمح ببعض المراجعة وبعض المشاعر الإنسانية.

لا تشعر بالكره لأيّ من هؤلاء الصغار.. كيف؟

كلّهم في سنّ أخيها الذي يتابع تعليمه بين يدي والديه.. والذي

تتمنى اللحظة أن تضم كفّه القوية العريضة كفّها.. تتمنّى أن تسمع صوته العميق المطمئن المؤمن يخفّف عنها..

أهي لا تعرف عاطفة الكره.. لماذا؟ كلهم تراهم بعين الأم.. وتلحَظهم بعين الأم ؟ كيف.. ثمة خطأ ما .. لعله .. من طرف ما..

المدينة س:

لا تملك الآن إلا النوم.. ليس سوى العتمةِ يخفف منها مصباح الطريق الذي تستطيع رؤيته من مكانها.. ليس سوى العلبِ الفارغة والأسلاك والجدران المكتوبة والباب المثقوب عند المقبض.. إلا أن النسماتِ التي طالما افتقدتها في سني الغربة.. تنعشها وتخفّف عنها.. لا تدري كم غفت.. أيقظتها أصوات رجال.. صراخ وتهديد.. صوت وحيد مرتعش يبكي ويقسم الأيمان.. أحسّت بقلبها يكاد يتوقّف.. جلست.. تفقّدت خمارها من جديد..جسدها يريد أن يتضاءلَ حتى يختفيَ وهي تستند إلى الجدار البارد.. طاويةً ساقيها تحتها.. محيطةً نفسَها بذراعيها لتبدأ رحلة جديدة من الذكر والدعاء..

ـ ألقُوه.. ضعوا رجليه في الدولاب

ـ أبوس يدك سيدي.. قلت كلّ ما أعرف.. والله العظيم..

بكت بكت.. تخيّلت رجلاً ضئيل الحجم.. ربما لمحته في إحدى الغرف لدى دخولِها، يلبس ملابس قروية.. يلفّ حول عنقه شماغاً

مـرقطاً بالأبيض والأسـود.. بهـذا توحي لهـجـتـه.. الدولاب والعـصـا رأتهما.. في كل مكان أُدخلت إليه.. كـأنهما جزء من (الديكور) في هذا العالم الذي تتعرَّفه بذهول.

إنه يُضـرب.. بقـسـوة.. بهـمّـة.. أحـد الفـتـيـان المؤدّبين جـداً هو الذي يضربه.. إنها لتتساءل منذ توقيفِها عن أعمال هؤلاء الفتية التي من أجلها استحقُّوا مرتباتِهم الجيدة (صرّح لها أحدهم بذلك في مكان سابق)

ـ تكلَّم.. قل كلّ ما تعرف..

ـ قل لي أنت سيدي.. ماذا تريد أن أقولَ سأقول.. لقد قلت كل ما عندي والله..

كان يصرخ مع كل ضـربة.. يتلاشى صوته قليلاً.. ثم ينفجـر فجأة.. وقلبها يقفز مع كل ضربة.. ومع كل صوت.. تسترجع وتحوقل وتستعيذ بالله.. تخشى أن يتوقّفَ لسـانها لحظةً واحدة.. الصمت يعني التفكير والتفكير يعني الألم والفزع .. ماذا جنى هذا الرجل.. وكم واحداً حوله الآن.. وما مصيرها في مكان بهذا اللون..

ـ لا.. لا.. صاح المشرف على الضرب.

ثم بفواصل صمتٍ بين العبارات.. وضغطٍ على الحروف:

ـ أنا لا أريد أن تقول ما أريد.. بل ما تعرف فعلاً..ما تخفيه عني.. تكلم قلت لك.. اضربوه..

ارتفع الصوت البارد العريض واشتدّ.

يزداد الضرب سرعةً وقوة.. لكنّ صوت الرجل كان يضعف.. يتلاشى.. وكأنه يغوص في داخله.. لم تعد حَنجَرته قادرة على تلبية درجة إحساسه بالألم والذلّ..

كيف؟ كيف غلبتها أشواقها إلى الوطن.. وهل على زيارة الأرض والذكرى والحلم من حرج.. إن أرض الله واسعة.. فلماذا نتعلق بأرض شهدت الطفولة والفتوة والشباب.. شهدت الفرح والحزن والأنس والوحشة..

لاوقتَ للتأمّل والتساؤل..

ـ صبَّ الماء على رجليه..

سمعت صوت الماء.. والأنين لا ينقطع..

واستمر التهديد.. وتتابعتِ الأيمان..

ـ أوقفوه.. ثم صرخ به: قف ..لا تستطيع أيها الكذاب؟ أسندوه خذوه.. أترى هذا الجهاز.. ترى هذه؟ يمكن أن تشلَّك في لحظة..

ترتجف رعباً وألماً وصوتُ المعذَّب يبتعد وهو يكرّر أيمانه.. ثم يهدّئها ذكر الله..

ها قد بدّدوا لها شيئاً من الوقت.. ليت هذا الباب يفتح.. وأيّ شيء يحدث..

وسمعت صوت القفل..انزلقت ساقاها بحركة غير إرادية من تحتها لتستقرَّ القدمان بخفّة في الحذاء.. أحكمت حجابها.. ازدردت ريقها.. فُتح الباب عن آخره.. فدخل ضوء أصفرُ خفيف.. ثم حال بينه وبينها شبح رَبعة أميل إلى السمنة.. في قمة رأسه التماعة.. إنه الصوت نفسه..

قال بلهجة مسترخية النبرة: أنت هنا.. ثم أدار ظهره وهو يقول: هاتها.

ها قد مضى من الليل شطر تُغبَط عليه.. في الممر القذر العريض سبقها أحد الفتية لتجد نفسها في الغرفة التي استقبلت أو استُلِمت فيها أولَ مجيئها إلى هذه المدينة التي بدت لها أقرب إلى القرى..

سرير ضيق عن يمين المكتب.. ومقاعد قديمة تجاهه.. جهاز تلفاز صغير يعلو طاولة يغطيها الغبار..

كان يستعدّ للجلوس وراء المكتب الذي يمكن اعتباره نظيفاً وجديدا، رجلٌ في أوائل العقد الرابع، اعتقدت أنه هو نفسه الذي أشرف على ما سمعته من التعذيب قبل أن يستدعيَها، هل كان التعذيب حقيقياً أم مسجّلاً، هل كان ثمة أثر ماء في الممر الذي عبرته؟ لا تدري.. الآن يخطر لها هذا التساؤل..

رتّب شعره الأشقر الأجعد حول صلعته، تلتمع بشرته الوردية لتغطيَ وجهاً ممتلئاً حليقاً تماما..يميّزه فم واسع وفكّ عريض مسترخٍ يقول إن صاحبه مرتاح مطمئنّ تماما.. بل هو مسرور، ويبدو أن

استرخاء الفكّ هذا وتركَ اللعابِ يملأ جوف الفم بدأ إيحاءً بالاستهتار والثقة أمام الموقوفين أمثالها، ثم أصبح ملازماً لهذا الكيان المتلىء صحةً ونضارةً تدلان على شِبع وريّ كاملين دائمين، وعلى نوم عميق سبق هذه الجلسة.

ـ ماقصتك يا.. ناداها باسمها كعادة الجميع هنا، كان ذلك يشعرها بالمهانة طوال الوقت، منذ مُنع عنها عند نقطة الحدود البرية جوازُ سفرها، واستدعاها الضابط ذو اللباسِ العسكريّ المكويّ جداً، والحذاءِ الملتمع جداً، والشعرِ العسلي المصفَّف بعناية..

هنا يجرّدونكِ من الأمومة والبنوة والأنوثة.. والإنسانية

ـ ماحكايتُك.. اجلسي

جلست على المقعد الغائر.. تتلمس بكفّها اليمنى عضدها الأيسر..

ـ ما بك؟

ما دام قد مهّد لسؤالها بذلك الحفل أمام باب غرفتها. فلتجبه بما يريد ليسترخيَ فكّه أكثر، وينتعش أكثر.

ـ خائفة..

كان يقلّب جواز سفرها وما ضُمَّ إليه من أوراق

ـ خائفة؟ لا يخاف إلا من أخفى شيئاً..

ـ وماذا أخفي؟! أجابت دون تفكير..

ـ كم عمرك؟

ـ أربع وثلاثون..

ـ تصدّقين.. تبدين في الرابعة والعشرين..

أما ينبغي أن تغضب؟ ابتسمت، وأظهرت الامتنان المطلوب لعبارته..

عاود النظر في الأوراق.. قال باشمئزاز لم ينجح في إخفائه:

ـ أهكذا تلبسين دائما..؟

استعادت سيطرتها على صوتها: تقريباً..

ستحاول إرضاء غروره وفضوله ما استطاعت، وهي شديدة الطمع أن الله سييسّر عودتها إلى ولديها..

ـ والآن.. احكي لي كل شيء..

ـ عمّ.. سلني، وأنا أجيب..

ـ مع من حضرت؟

ـ مع ولديّ..

ـ أين زوجك؟

إنه يعرف، إن لم يكن عن طريق الأوراق فمن الموظّف الذي استلمها..

ـ عندكم.. سجينٌ منذ ثماني سنوات..

ضحك بمرح كأنه الفرح.. وكان واقفاً حتى اللحظة، فجلس.. دار بالكرسي قليلاً..

ـ أووه.. قصتك خطيرة..

سألها عن كلّ تفصيل ممكن.. عن كلّ فرد يمتّ لها بصلة..تحدّث في بعض شؤونِ الدين، اعترف أنه لم يتلقَّ كثيراً من التعليم لكنه يحترم أبناء وطنه المتعلّمين المغتربين ويقدّر مشاعرهم.. تساءل ما الداعي إلى ستر المرأةِ كلَّ جسمها وشعرها، أليس بإمكانها الحفاظُ على أخلاقها وهي سافرة؟ ولما مرّت في التلفاز صور رقص نسائي جماعي.. رفع الصوت بجهاز التحكم وتساءل: لست أدري ما الخطأُ في هذا.. ما الحرامُ فيما تفعله هؤلاء.. هزّت برأسها وابتسمت.. لقد منحتها أمومتها من القوة فوق ما توقعت: ها هي ذي تبتسم وهي تريد أن تبصق.. وتهدأ وهي تريد أن تصرخ، وتصمت وهي تريد أن تنتحب.. تشكر وهي تريد أن تشتم..

ـ كيف أمضيت كل هذه السنوات..

أردف بلهجة عطف..

ـ كنت صغيرة عندما اعتقل زوجك..

مرة أخرى حاولت أن تريَه أنها امرأة تستكين لظروفها دون تدبير أو تفكير..

ـ لا أعرف.. هذا ما حدث.. الآن فات الوقت.. لم أفكّر في هذا

الأمر.. ثم مرّت السنون.. لا أعرف كيف.. اشترك كتفاها في النفي مع حركة رأسها..

عاد إلى لهجة المحقق لكن.. الودود جدا..

ـ وماذا تعرفين عنه.. زوجك.. كلّ امرأة لا بدّ أن تعرفَ كل كبيرة وصغيرة عن زوجها.. إنها لا ترضى بغير ذلك..

«الآن يريد أن يعرفَ كل شيء.. وهل بقي شيء.. أتركتم لديه شيئاً يجب أن تقوله هي.. سبحانك اللهم»..

ـ ماذا تريد أن أتذكّرَ الآن.. كان كل منّا مشغولاً جدا.. هو بعمله وأنا بالبيت والدراسة..

ـ تريدين أن أصدّقَ أنك لا تعرفين أصدقاءه.. من يزورُه، ومن يزور هو، وكيف يفكر..

ـ كان قليل الكلام جدا.. وكان ذلك يضايقني..

ـ كيف ترضَين.. لا أصدق، امرأة عاقلة متعلمة لا تعرف شيئاً عن زوجها.. شيء واحد يحرص الرجل على إخفائه، وقد ينجح..

ـ ماهو؟

ـ علاقة بامرأة أخرى..

تستطيع أن تبتسم وهي تريد أن تبصق:

«الصائم المصلي.. الذي حفظ لسانه من الغيبة، وعينَه ويده من

الخيانة، أبو الصغيرين، الكريم العفّ الطاهر يقيم علاقة مع امرأة أخرى».

بحركة رأسها فحسب حاولت النفي، واثقةً بأنه يكرّر كلاماً وأسلوباً استخدمه مئات المرات..

انتقاله من موضوع إلى آخر كان يدهشها ويطمئنها.. إنه لا يتمسّك بسؤال ولا يلحّ..

ـ إذن.. ما رأيك في أن نكلّفَك بمَهمة

ـ أنا؟ استفهمت برعب.. أنا لا أصلح أبداً..

ـ بلى، تعودين إلى هناك.. لتقنعي ناساً نحددهم لك بالعودة، بعد تبليغِهم تحياتِنا واحترامنا وحرصنا على راحتهم وأمنهم في وطنهم.

زاد الاستنكار والخوف في ملامحها..

ـ لا أستطيع.. لا أعرف..

ـ أو نبقي ولديك هنا في رعايتنا إلى أن تعودي من مَهمتك؟

أحست بقلبها يتهاوى، بصوتها يضيع.. بجسدها يتهالك.. ابتلعت ريقها بصعوبة. صمتت قليلاً..ثم سألت بلهجة أقرب إلى المرح:

ـ رهائن، تقصد؟

ضحك مرةً أخرى بشدة.. ثم لمس زرّاً أمامه.. وسمعت صوت

جرس يأتي من الخارج.. بعد لحظات حضر رجل لم يبلغ الثلاثين، أشعثُ، في لباس رياضيّ، يبدو كمن نهض من نومه الآن..

جلس بوجه جامد وعينين لا تستقرّان.. يقلّب بين يديه جواز سفر، أشار إليه المحقق:

ـ جوازه جاهز للسفر إلى أهلك.. إن رفضت عرضي، يمكن أن نرسله بالمَهمة نفسها بدلاً عنك..

ـ لا بأس..

ـ هل تريدين إبلاغ أهلك رسالةً ما..

وهل سيعلم أهلها.. أينبغي أن يعلموا؟

ـ شكراً.. ليبلغْهم فقط أني بخير..

تكلم الرجل أخيراً:

ـ أنا أذهب باستمرار.. لن أزعج أحداً.. حديث ودّي فقط!

مرة أخرى تُصدّق.. إنهم يستطيعون..

وأعيدت إلى تلك الغرفة .

أوصى المحقق (المعلم) صبيانه بعدم إقلاق راحتِها.. ثم ذكّرها بأن عليها غداً أن تخبرَه بقرارها تُجاه تلك المهمة..

لم تعد تفرّق.. أهي تتباله فعلاً.. أم نجحت أساليبهم على قِدمها في زعزعة قواها النفسية..

ولم يزعجها الشبان.. ولكن كيف تنام.. كيف تعرف إن كان (المعلم) جاداً أم هازلاً، أحقاً يهدّدها بولديها.. أيعفيها ببساطة كما يدّعي إن أرادت.

وكيف تنام وقد اتفقت عليها هرّتان بصوتين شرسين جعلاها تتكمش مجدداً في السرير وتلتصق بالجدار.. خيّل إليها أنهما نمِران.. يتعاركان يعويان يموءان ينوحان.. ضربات أقدامهما كأنها مطارقُ تطرق أذنيها، إنهما هناك، ربما بجوار النافذة التي يمكنهما الدخول منها.. لكأن أحداً يثيرهما في هذا الليل الساكن الجميل.. سمعت صوتاً يزجرهما.. صمتتا.. ثم عادتا.. أخيراً اختفى صوتاهما وقد تركا أعصابها خليطاً من أسلاك موصولة بتيارات كهربائية شتى.. بل ركاماً من أشواك تخِزها لدى كل حركة ولكل فكرة.. بدأت مقاومة جسمها تنهار تعباً ونعاساً وخوفاً وحزناً.. ظلت تذكر ربّها، وتدعو حتى نامت..

العاصمة:

ثم ماذا؟

هي ذي في (الصالون)، تحمد الله أنها عادت إلى هذا المكان.. ليلة الأمس انتهت.. وهي الآن في مدينتها التي تحبها، خارج هذا الباب الأسود، تنتظر..

الانتظار ينهكها، اللحظات طويلة، ساعة يدها ضُمَّت إلى الأمانات،

منذ ثماني سنوات تنتظر زوجها، أصبح الانتظار جزءاً من حياتها، لكنه هنا أقسى وأصعب، «ما أخوفَ المجهول، ما أقبحَه حين يكون بين أيدٍ لا تعرف الله.. اللهم لك الحمد على نعمة الإيمان بك».

المدينة س:

دخل أحدهم صباحاً فوجدها تصلّي، خرج دون أن يتكلم.. بعد قليل استُدعيت.. سيسألها المحقق المعلم ماذا قررت.. كان واقفاً وراء المكتب وأوراقها بيده.. ويده الأخرى في جيبه.. حين نظر إليها قرأت في وجهه ما يشبه القلق والخوف.. كانت تتمتم بدعاء دون أن تخفيَ ذلك، رسم نظرة تعاطف وهو يقول: مابك؟ هل أستدعي لك طبيباً؟ اكتشفت أن صوتها يكاد يختفي حين أجابت أن لا ضرورة لذلك.

ـ تريدين شيئاً؟ كانت لهجته تتكلف الإشفاق والرحمة..

ثم عادت اللهجة التي خبرتها أمسِ وكأنه يختتم مسرحية ملّها:

ـ حسناً، سنرسلك الآن إلى العاصمة حيث يتابَع التحقيق معك..

انتعشت آمالها.. هدأت خواطرها قليلاً.. فأين التهديد إذن؟ لم يسألها عن موضوع أمس.. أكان ذلك كلُّه تزجيةً للوقت، وعبثاً بأعصابها وكرامتها؟ شفتاها لا تكفّان عن الحركة، والضيق يتّضح في وجهه:

ـ قالوا إنك صلّيت..

ـ نعم، شيء عادي

حائر، حانق، خائف.. كيف تدري.. تكاد تجزم أنه قلق متوتر قليلاً:

ـ هل دعوتِ ألا تدخلَ الغرفة بعدك امرأة؟

ـ وهل دخلتها كثيرات..؟

ـ بصراحة.. حتى اليوم لم تدخلها امرأة مثلُك..

أعلن أحدهم أن السيارة جاهزة.. اجتمع الفتية حولها.. كلّ يودّعها بعبارة: لا تؤاخذينا، قصّرنا، آسفون من أجل الأكل..

قالت باسمةً وهي لا تنكر أنها أميلُ لتصديقهم، تدفقت مشاعر الأمومة في داخلها وهي تتخيل ابنها في سنهم.. أنا أفهم موقفكم تماما.. أحسّ بكم، شكراً..

صعِدت الدرج مطمئنة، قوية، مرحة.. استقبلتها شمس لطيفة ونسمات نقية باردة تناسب الساعة التاسعة.. قالت لأحدهم وهي تردّ له القلم: أقول لك الصدق، صوت القطط هو أكثر ماأخافني.. ابحثوا لها عن تدبير..

ضحك : معك حق، حاولت طردها..

أهم صادقون.. أكل ذلك جزء من المسرحية.. ربّما.. وأمام باب السيارة كان الثلاثة الصامتون: رجلان مسنّان والثالث (جهاد) يركبون بقيودهم في المقعد الخلفي.. بينما أوثرت هي بالمقعد الأوسط وحدَها.

العاصمة:

أخـرجت من (الصـالون) إلى بهـو واسـع سـبق أن مـرت بـه.. هل ستحملها رجلاها بعد.. السلَّم الرخاميّ كم ارتفاعه.. ولم لم يستخدمِ المصعد هذا الشابُّ الممتلىء ذو الشعرِ الأسود الجعد.. أربع طبقات جعلتها تلهث وتحسّ آلاماً في ساقيها.. وعبرَ ممرّ طويل ذي بلاط أبيضَ يعُجُّ بالفتيان، وسحبٍ من دخان (السجائر).

أدخلها الشاب غرفة كبيرة بدت مؤثثة بسخاء غير مألوف لها حتى الساعة.. الكراسيّ الجلدية الكبيرة سليمة وتبدو مريحة، مكتبة كبيرة تشغل الجدار يسار الداخل.. جهاز تكييف من النوع الأرضي الكبير.. وعلى بعد تجاه المكتبة مكتب كبير، نوافذ، ستائر سميكة.. سجادة كبيرة.. طاولات صغيرة متناثرة بين الكراسي أو أمامها.

اقتربت من المكتب تتصنع الهدوء والثبات. ما يميّز الجالسَ وراءه سمرةُ البشرة مع خضرة العينين الواسعتين بجفنين علويّين سميكين وهالتين سوداوين تحتهما.. قال بلهجة طبيعية وكأنه يستقبل ضيفة يعرفها منذ زمن:

ـ تفضلي.. مابك؟ خائفة؟

تهدّج صوتها.. سمعت من نفسها لهجة غريبة نزقة غاضبة .. لست خائفة.. ولكن ما هذا.. لماذا.. لا أفهم..

قال بلهجة عطف وقد استدار حاجباه:

ـ ماذا حدث.. أزعجوك في (س)

إذن فهو يعرف، ودوره هو دور المنقذ..، قالت وصورة ما رأته في أسفل المبنى لا تفارق خيالها أبدا:

ـ لا.. تحت.. ماذا يجري..

وسألها فجأة مثل المعلم في (س):

ـ كم عمرك؟ أجابت مباشرة..

ـ ماذا فعلت بنفسك، تبدين في الستين.. قالها بحركة اشمئزاز من فمه وعينيه.. نهض.. اتجه نحوها، رفع بنطاله بحزامه الجلدي محاولاً حشر ما اندلق من بطنه.. كأنها عادة تلازمه.. لعله لم يتجاوز الأربعين جلس على كرسي ملاصق.. انحنى ومعظم جسده خارج الكرسي..

ـ اهدئي، لا تخاف، أنا هنا مكان أخيك.. هل يريد الأخ شراً بأخته..

سألها بضعة أسئلة ألفتها عن زوجها..ثم وقف.. وبصوت حاول أن يبثَّ فيه الصدق والحرارة أعطى أوامرَ لشابين في الغرفة بتقديم ما تريد من طعام وشراب.. رفع بنطاله مجدداً وهو يتحدث بسرعة ويتحرك بسرعة.. حمل أوراقاً وقلماً وطلب منها أن تتبعه إلى غرفة داخلية صغيرة ,مزودة بسرير وثلاجة صغيرة.

جلست.. جلس في المقعد المجاور جِلسة قلقة كحديثه: انتهى دوامي الآن وأنت تريدين العودة إلى ولديك دون شك.. أنا أريد مساعدتك

لكني لا أستطيع خيانة واجبي.. ساعديني كما أساعدك.. اكتبي على هذه الأوراق سيرة حياتك.. وبخاصة ما يتعلق منها بزوجك: أصدقائه، علاقاته، اهتماماته.. إن أيّ شيء تكتبينه قد يفيده شخصياً.. ربما أرسلك الله لمساعدته.. ما يدرينا..

ـ ولكن ماذا فعلت.. لماذا أنا هنا ؟

ـ الحقيقة.. الأمر ليس بيدي ,أنا أقوم بواجبي.. وصلنا بلاغ يقول أنك تمارسين نشاطاً يمَسّ أمن الدولة.

ـ أنا؟

ـ وتتسلمين نقوداً من جهات مشبوهة في غياب زوجك؟

ـ أنا؟

لم يناقشها.. إنه في مهمة يريد الانتهاء منها وبسرعة.. كأنه ينتظر أي دفاع ليتابع:

ـ ما رأيك إذن في التعاون معنا؟ ربما كان في هذا عونٌ لزوجك.. ألا تريدين أن يعود إليك وإلى ولديه؟

أترى لديهم وسيلة لإرغامها، وكيف وماذا ستفعل.. ومع ذلك أجابت بلطف متناه:

ـ أنا لا أصلح أبداً لهذا العمل، مستحيل..شخصيّتي لا تصلح..

ـ لا بأس، كما تحبين، اكتبي الآن.. بل ارتاحي، كلي أولاً.. افعلي ما تشائين في هذه الغرفة.. سأعود بعد ساعتين..

الشابان في الغرفة أحدهما سائقه، والآخر يخدمه على ما بدا لها منذ وصولها..

أحضر السائق دجاجة مشوية، وظل يلحّ ويقسم إلى درجة أحرجتها فأكلت شيئاً لتتخلّص من رجائه وتوسّلاته..أظهر لها تعاطفاً وتفهماً، فهمت أن (المعلم) هو الشخص الثاني في هذا المركز.. ثم حكى لها قصة حياته ومشكلته مع زوجة تحبه وتمنعه من زواج ثانٍ رغم أنها لا تنجب.. حكى لها كيف خدعه شريكه في محلّ لإصلاح السيارات وهرب بالمال كله.. كيف عمل في الخليج.. كيف ينتظر فرصة جديدة للسفر.. رفع كفَّيه مُفرَّجَي الأصابع أمام وجهه: أصابعي هذه ذهب.. قالها بأسىً وحماس.. العمل هنا ليس لي.. لا يناسبني..

تعدّدت الأسئلة من جانبها وكان كلّ ما يقوله مطَمئناً فلا تدري أهو يقوم بدور مرسوم أم يتصرّف على طبيعته: المعلم يحبّ (الحق) وما لم تكوني قد فعلت شيئاً فستعودين إلى بيتك..

الفتى الآخر بدا في العشرين، حليق الرأس، عليه آثار نعمة ورقة، قدم لها القهوة والشاي والمليسة.. يقضي الخدمة لإلزامية هنا بمنجاة من الحر والبرد في الثُّكُنات ولابد أن ذلك تمّ له (بواسطة) قوية، أما صلعه المؤقت فعقوبة على تأخّره صباحاً.. وقد سجن (تحت) ثلاثة أيام فكاد يجَنّ..

لكن (المعلم) حين يقول أنه سيغيب ساعتين فهذا غير صحيح.. لن يعودَ قبل السابعة مساء..

وماذا تكتب.. ما المطلوب للخروج من هنا ودون أن تشعر بخيانة أو مهانة.. هل سيناقشها فيما ستكتب.. هل سيقتنع.. هل يعقل أن لديها معلوماتٍ عن زوجها لم تُعرف بعد.. أما قال (المعلم) إن (الخونة) ممن اتهم زوجها بالانتماء إليهم سحقوا.. ولن تقوم لهم قائمة بعد.. فأيّ خدمة يريدها الوطن بعدُ من امرأة تعيش خارجه..

وإن تأخر المعلم.. هل ستنام (تحت)..

سألت السائق وهي تحاول أن تبدوَ مازحة: أيضربون النساء؟

أجاب بلهجة جادة لمست فيها طيبة: أعوذ بالله..

ـ أهناك سجّانات؟

ـ لا، رجال فقط..

لا زالت الذكرى القريبة هي الأكثر إلحاحاً.. الجدران الحديدية السود.. العيون المعصوبة.. الغبار وخيوط العناكب.. الخزائن الصدئة والكرسي المذبوح.. والكوّة الصغيرة في باب الزنزانة..

هل سيعيدونها إلى هناك إن لم تستجب؟

«ماذا يريدون.. ماذا أبقت ثماني سنواتٍ عجاف من حقائقَ محجوبة في جوف سجين تهمتُه الإسلام في بلد يدين تسعون بالمائة من أهله بالإسلام.. ترتفع فيه مآذنُ كثيرة وجميلة.. يفتتح إرساله التلفازيّ بعشر دقائقَ من القرآن الكريم.. وينهيه برقصة (شرقية) لا (غربية)».

حين غادرها السائق الذي يسِم نفسه بالشهامة، تركت لدموعها العنان.. إن ما يضطرم في داخلها من تساؤلات وتوقّعات يغلب عليها التشاؤم؛ يجعل ذهنها عاجزاً عن التحمّل، وهي امرأة طيبة حقاً.. قليلة الاختلاط بالناس، لا تكاد تحسن تقدير الأحداث والأشخاص وتكاد تحت ضغط الخوف على نفسها وعلى ولديها.. تكاد تصدّق أن ما ستكتبه سينقذها..بل ربما كان عليها أن تكتب.. إن خلاصها أفضل.. لا داعيَ لممارسة دور البطولة الآن.. ومن هي حتى تتحدّى هؤلاء.. ولماذا.. إن شيئاً مّا لا يخفى عنهم.. أما قالوا لها إن مخابراتهم منتشرة في كل مكان.. في كندا وأمريكا وكلّ بلاد العرب.. يجب أن يعرفوا ما يحدث لمواطنيهم هناك وما يفعل مواطنوهم.. هل سيضرّ زوجها أن تذكرَ اسماً لصديق مسافر أو سجين.. لم لا تنقذُ نفسها إذن؟ ما من أحد سيلومها.. إنها امرأة.. وخروجها من بين هذا الحشد من الرجال هو الحقّ وهو الصواب وهو الخير..

وازداد بكاؤها وهي تتخيّل الولدين.. ماذا يقولان؟ ماذا يفعلان.. ماذا يأكلان.. ستصلّي الابنة كما وعدتها.. كان آخرَ ما أوصتها به الحفاظُ على الصلاة.. كان موقفاً (دراميـاً) كما يقولون أحرجها وأغاظها جداً أن تقفَه مع ابنتها وهي تهمس في أذنها حين وداعها: لا تنسَي الصلاة.. يا روحي..

ولم هي عجلى بشأن الكتابة..

خرجت إلى الغرفة الأم: أريد أن أصلّي..

قفزالسائق.. سأدلّك على الحمّام.. عاد بها إلى الممر، دخلت حماماً واسعاً أقربَ إلى النظافة، جدرانه مكسّوة بالبورسلين الأبيض.. تطلّ نافذته على ساحة المبنى.. توضأت مسرورة.. تأمّلت وجهها للمرة الأولى منذ غادرت أهلها قبل ما يزيد عن يومين.. آثار البكاء والتعب بادية على عينيها.. وجهها حزين وكئيب لكن شحوبه دون ما تصورت.. أفرحها مسّ الماء من جديد.. استمعت إلى قرقرته فوق الحوض الأبيض.. أكثرت من نثره على وجهها وعينيها.. خلعت جوربيها لتغسلَ قدميها وتريحهما.. مشّطت شعرها بأصابعها، ثم أحكمت خمارها من جديد.. وعندما خرجت فوجئت بالسائق يحمل منشفة ويتّجه نحوها.. شكرته وعادت إلى الغرفة الصغيرة تبحث عن شيء تصلّي عليه، أصرّ على مساعدتها حتى وجد صحيفة قديمة على ظهر خزانة.. صلّت بقلبها مع جوارحها.. غمرتها طمأنينة عذبة.. أليست بين يدي من خلقها.. فليكن ما يكون.. أليس هو علام الغيوب اللطيفُ الخبير.. أيمكن أن يحدث لها شيء دون علمه وإرادته؟ علامَ الحزن والخوف؟ أليس هو ربها وربّ الولدين والوالدين، ربّ (المعلّم) ومعلّم (المعلّم) ومعلّم معلّم (المعلّم)؟

فاضت من عينيها دموع الامتنان والرضا، وهيمنت على روحها سكينة أسعدتها فطفقت تردّد: يا ربي لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

أين كانت قبل هذه الرحلة من عالم الدعاء؟ لم كان قلبها قاسياً

وعقلها بارداً؟ كانت في استسلام عجيب لمصابها في زوجها.. استسلام ينافي إيمانها برحمة الله وثقتها باستجابته..

طلبت مصحفاً.. أعطاها السائق نسخة صغيرة الحجم من مكتب (المعلّم).. رأت في العثور عليها في هذا المكان عطاء جديداً من ربها.. قرأت.. أحسّت لكل كلمة طعماً جديداً.. اتّسعت الغرفة.. اختفت الجدران والأشياء وامتدّت أمامها آفاق لا نهايةَ لها.. سطعت شموس وانطلقت خيول قوية أصيلة نحو تلك الآفاق المشرقة.. لا نهاية للسماء الصافية.. لا نهاية للنور.. لا نهاية للسهول الخضر الندية.. حمحمة الخيول تؤنس سمعها.. صوت سنابكها وهي تضرب الأرض ينشر في فؤادها القوةَ والأمل بأن هؤلاء الذين يمتطونها ويمسكون بأعنّتها بأيديهم المتوضئة يكبّرون ويهلّلون شامخي الرؤوس.. تستقبل وجوههم الصابرة النور.. لا شك في وصولهم.. طالما أنهم راسخون فوق تلك الخيول، لا يتزحزحون..

أعادت المصحف، وعادت إلى الأوراق التي تنتظرها.

استطاعت أن تملأ ورقة واحدة بمعلومات أساسيّة يمكن جمعها من جواز سفرها ووثائق دراستها وعقد زواجها، أضافت ذكر ظروف اعتقال زوجها وظروف مغادرتها موطنَها وعدد زياراتها له..

ترى من هو (المعلّم) الأول.. وهل سيسمح بخروجها الليلة.. إنها لمتفائلةٌ ويجب أن تبقى كذلك.. لا يبدو أن البلاغ ضدّها قد أُخذ مأخذ الجدّ.. لم تشغلْ نفسها كثيراً بالتساؤل عمّن يكون وراء ذلك

البـــلاغ.. هي تظنّ ألاّ أعــداء لهــا أو يجب ألاّ يكونَ لهــا أعــداءُ في الدنيـا.. فـإن كـان ثمّـة عـدو..ألم يكفـه غـيـاب الزوج والغـربة.. مـرّت بذاكرتها أسماء قليلة يمكن اتّهامها.. بل خطر لها أنها ضحيّة تمثيليّة يتعرّض لها كل من لا يرغب الوطن في استقباله بعد..

مـرّتِ الســاعـات ببطء.. هبطتِ العـتـمـة بهـدوء شـجيّ تحـبّـه في وطنهـا.. النافذة مفتـوحة تتسلّل منها نسـمـة رخيّـة هانئة.. خفّت وطأة حرّ محتمَل.. تناهت إلى سمعها الأصوات المألوفة للسيارات والمارة في الشـارع المحاذي.. خفّ ضجيج الشبان والمراجعين في المبنى الذي بدا أن خدماتِه كثيرةٌ وليست حكراً على المشبوهين أمثالها.. انتبهت إلى أنها كانت مستغرقة في أحزانها إلى حدّ أصمّها وأفقدها ذلك الشعور الجميل بأنها في وطنها.. وأن ولديها لا يبعدان عنها أكثر من عشـر دقـائقَ بالسـيـارة.. ومن ألـطف مـا أهملت تذوُّقـه أنهـا لا تسـمـع هدير مكيّف.. ولا يصلُها من الخارج هدير مكيفات.

أمـسـيـة حلوة هانئـة لو كـانت بين ولديها في الشـرفة الصـغيـرة.. تريهما وطنها من حيث تقف.. الناس.. والسيارات القديمة.. الشوارع الضيقة المنهكة.. بائع البطيخ في زاوية الشـارع تحت خيمة من صنع يده، يراقب ويحـرس هرمـاً أخـضـرَ من هذه الفـاكـهـة الريّـانة.. أرتال الصبايا والشبان والأطفال تسير لمجرّد السير، فليس أجملَ من السير في المســاء إذا كنت لا تملكُ سـيـــارة.. ولا تملكُ أن تصطافَ خـــارجَ المدينة.. يهبط الهدوء ببطء مع هبوط الليل.. وتمتلئ الشرُفات ثرثرة

وضحكاتِ نسوة ورجال.. وأصواتَ كؤوس وأطباق..وقد يطغى صوت تلفاز.. لكنك على أرض الوطن.. فلا بأس..

مضت ساعات ستّ.. ساعة تهبط بها إلى أعماق السجن الفاغر فاه تحت هذه الأرض.. يضمّ الأحياء الأموات في أحضان البرد والعفن والظلمة والقضبان الحزينة.. فتعيش في مقاومة لأوهامها وخيالاتها التي يراها عقلها جامحة مرفوضة.. وساعة تحلّق بها في سماء الرضا والسرور بما اختاره الله لها واختارها له.. وبين هذه وتلك تعود إلى الدعاء والذكر وحين تخونها الذاكرة لا يحرجُها أن تدعوَ بلغتها وبأسلوب من صنعها.. وكان السائق الذي تظنّه طيباً.. يتردّد عليها بين ساعة وأخرى يسرّي عنها ويشير عليها ويطمئنها.. إلى أن وجدت نفسها في لحظة ضعف قاسية قبيل المساء ترجوه الاتصال بعمّ ولديها ليطمئنَه عنها إن هي باتت الليلةَ هنا.. فوعدها واضعاً كفّه على رأسه: على راسي.. ليس لديّ هاتف، سأتصل من خارج البيت حين ينتهي دوامي.. وأخفى الرقم الذي كتبته له في جيب قميصه..

وقاربت الساعة الثامنة..

أهو صوت المعلم .. أصوات قدومه في الممرّ الطويل الذي يضخّم الأصوات ويرسل الأصداء.. «ليكن هو يا رب.. اللهم اجعله هو وأفرغ عليّ مزيداً من الصبر وامنحني القوة»..

سمعته يتحدث على باب غرفته يلقي التحيّة ويردّ تحيّات.. ثم استدعاها لتجلس أمام مكتبه، وتناول الأوراق منها..

كثرت الهواتف.. كان يضحك، يدور في كرسيّه.. يبدو مرتاحاً جداً كمن يستطيع أن يفعلَ أيّ شيء، ويخدم كل صاحب حاجة: قولي له أرسلني فلان وسيعطيك التأشيرة حالاً.. قل له إنك من طرف فلان وسيوقّع.. لا أجد مَيلاً لحفلات الزواج الليلة.. مع مَن سأحضر.. ستتأخرون.. سنرى، إن أنهيت عملي قبل العاشرة..

يلقي عليها سؤالاً ثم ينصرف إلى هاتف، أو شابّ يأتيه بورقة..

ثم يعود إليها: ألن تستطيعي مساعدتنا في شيء.. حسناً.. كيف اعتقل زوجك.. هل تعرفين من اعتقله..انثالت أسئلته عن زوجها وهي تجيب باقتضاب..

غير المفهوم لها أنه يحادثها وكأنهما يتبادلان حديثاً حول الأحوال الجوية أو أصناف الطعام.. يهزّ برأسه ويحتفظ بفمه ضاحكاً طول الوقت.. تابع السؤال عن زوجها، ثم تساءل عن شكله ووصفه.. فوافقته.. فقال بطرب: هو.. عرفته.. أنا أتيت به.. وكرّر: أنا أحضرته.. تذكّرته.. واستمر الحديث عادياً هادئاً.. تتخلّله طمأنة حارة: إن شاء الله سأبذل كلَّ جهدي لتعودي الليلة.. ولو اضطررت للنوم ستنامين هنا، و أشار إلى الغرفة الصغيرة، في غرفتي..

وبدأ يكتب بهمّة.. يسألها ويكتب.. عن كلّ مخلوق آدميّ يمَتّ لها أو لزوجها بصلة.. الكبار والصغار النساء والرجال الأصهار وزوجات الأبناء المسافرين والمقيمين.. يسأل ويكتب إجاباتها الأمينة.

كـانت تعـرف أنه لافـائدة من إخـفـاء أي اسم أبداً.. لأن كل من ذكرتهم تعرّضوا لـلأسئلة نفسِها لسبب من الأسباب،على الأقلّ حين نظّموا بطاقاتِ هُويّاتهم الشخصية.

وبدأ يستدعي الفتيان الذين يملؤون الممرّ والغرف المجاورة..يعطيهم أوامر تتعلّق بإنهاء أوراقها.. وكان أجملَ ما سمعته أمرٌ بإحضار متاعها القليل من الأسفل..

لا تكاد تصدّق.. سَيَصْدُقُ حدْسُها ببساطة..؟

ثم وقف المعلّم الذي اكتشفت تهدُّل كتفيه وافتقار جسمه إلى الحيويّة والتناسق.. أخذ أوراقها وطلب منها الانتظار إلى أن يعود..

قال لها السائق: توقيع واحد ينهي موضوعك، توقيع المعلم (الأول).

سألت بلهفة: أهو موجود؟ أتظنه يوقّع؟ يوافق..

قال: إن اقتنع بكلام معلّمي سيخرجك.. هو الآخر لا يحب الظلم..

ـ وهل يجب أن يراني ؟

ـ ربما..

عادت اللحظات تطول والسائق المتعاون يؤكد لها: والله قلت له أنك بكَيت كثيراً.. رجوته أن يساعدَك ولا يؤجّلَ قضيّتك.. ثم يرجوها أن تشغل نفسها بمشاهدة ما يعرضه التلفاز.

ماذا سيقول المعلم الكبير.. هل ستقنعه أوراقها.. هل سيجد

مسألتها لا تستحقّ اهتماماً.. أم سيعرقل خروجها الليلة.. الساعة تقترب من العاشرة.. وهذا الرجل السريع ذو الأجفانِ الحمراء السميكة والهالتين السوداوين تحت عينيه يريد الانصراف..

استُدعِيت وهبط بها شابّ جديد في المصعد طبقتين اثنتين.. ثم أدخلها غرفة أفخم وأنظف.. كان وراء المكتب الخشبي الأنيق ذي الزجاج الصافي وأجهزة الهاتف المتعددة والأدوات المكتبية الفخمة.. كان وراءه رجل تجاوز الخامسة والأربعين أبيض البشرة وسيم ممتلئ عريض الكتفين.. أنيق الملبس في بساطة.. في شكله أبوّة وفخامة.. رحّب بها وخاطبها برقّة طالباً منها الجلوس.. كان صوته منخفضاً واضحاً أنيق النبرة.. جلست وقد عاودها شعورها الصباحي بالإنهاك والملل والحيرة.. ماذا بعد.. ماذا بعد.. لو رأيت هذا الرجل في شارع.. أو على شاشة.. أو في منزل فماذا تتوقعين أن يكون؟ (معلّم).. يحمل رتبة عالية في المخابرات..

هوذا تلميذه الذي استنطقها يجلس إلى المكتب مؤدباً هادئاً.. لكن نظراته تنبهها الآن وحسب إلى أنه من أهل الخمر.. أمّا هذا المعلّم الكبير الأول هنا، فحريّ بصوته المهذّب وأدبه الجمّ أن يجعلاك تتخيله في كل مكان إلا هذا المكان.. المكان الذي تسمع عنه قبل اعتقال زوجها: واحد من أفظع وأقسى مراكزِ التعذيب.هكذا هي سُمْعتُه..

طلب لها قهوة.. اعتذر عما تعرّضت له من إزعاج.. بيّن الضرورة في ذلك بكل هدوء: البلد مهدّد صامد دون غيره.. كثيرون يرحلون

ويعودون دون أن نعرف عنهم شيئاً.. نريد الاطمئنان عليك والحديث معك.. هذا هو كلّ شيء..

هل من فائدة لأي كلام بعد؟

ستّ وثلاثون ساعة، أحسّتها شهوراً، من الخوف والإرهاق والانتظار قطعتها متنقّلة من (معلّم) إلى (معلّم) إلى (معلّم)، ترى لماذا اختاروا هذا اللقب؟ .. وماذا يعلمِّون.

السائق الطيب رافقها إلى السيارة وكان يريد مرافقتها إلى البيت فرفض معلّمه باشمئزاز.. قاد السيارة فتىً ضاحك الوجه إلى جانبه رشّاش، قطع بسرعة عدداً من الشوارع ذاتِ الأضواء الخافتة.. بدا واثقاً تماماً من العنوان دون أن يسألَها..

لا تدري كيف أوصلتها ساقاها المتخاذلتان وجسدُها المنهك إلى باب الشقّة المطلوبة، حيث ستحلّ ضيفة مع ولديها الليلة.

❋ ❋

المشاهد لا تنتهي

المشهد مجهول الترتيب

نزل عن حصانه برشاقة لا تناسب عمره، ربت عنق الحصانِ بحنان.. مرّر أصابعه بين خُصُلات شعرِ العنقِ الجميلِ الممدود.. اقترب منه وطبع عليه قبلة طويلة هادئة.. ثم، ودون سابق إنذار، عاد إلى الوراء خطوات.. وضرب الحصان على مؤخَّرته ضربة قوية.. فعدا ورمح بعيداً.. ليغيبَ عن الأنظار.

التفت إلى امرأة كانت تقف قريباً منه، تبدو أنيقة جداً، في بساطة وثقة توحيَ أن مظهرَها هو آخرُ ما تفكر فيه.

جميلة وأنيقة، وفي عينيها بريقُ الثقة بالنفس والجرأة.. مدّت إليه ذراعها فتأبَّطها بجذَل، مشت بخطوات ثابتةٍ كأنها تقوده.. لم تعترضْ حين ألقى بذراعه على كتفيها.. إذ بدا لها عجوزاً فجأة.

كلما سارا أكثرَ كانت تحسّ بثِقَل ذراعه وحرارتها على كتفيها، كان الطريق أمامهما صحراوياً متشابهاً، لكنَّ فيه درباً عبَّدته أقدامٌ كثيرة سبقتهما..بدا الاثنان متفاهمَين، ومع كل خطوة يخطوانها كان ينبعث خلفهما ضبابٌ أزرقُ كدخان دون رائحة.. يلاحقهما ويخفي المعالم خلفهما.. ربما كانا يشعران بالوحدة، لكن دونما قلق، حتى الصرخاتُ

القليلة التي كانت تصل إلى سمْعهما دالةً على فزع أو نزْع أو قهر.. لم تكن لتوقفَهما إلا ثوانيَ.. إن مصدرَها أفقٌ بعيد.. يصعب الوصول إليه.

لابدّ من الوصول إلى الدار المنشودة.

ربتت كَرِشه المهتزة قليلاً بفعل المشي الجادّ:

ـ كيف تمكنت من صنعها في سِني الغربة؟

ابتسم ابتسامة رضىً عريضة، وهو يمسح عليها بباطن كفه: الإخوان كانوا في غاية الكرم.. قدروا كل جهودي، تنهّد ثم تابع: قفزت على حواجز، بعضُها كان مشتعلاً، زحفت وقارعت، استجدَيت وبكَيت، احتضنت كل من ظننته يفكّر في مساعدتي، رغم أن بعض الأنفاس كانت مُنتِنة.. جرّبت كل شيء، و كان لا بدّ أن أرتاحَ أخيراً.. لابدّ من العودة ولو وحيداً..

قالت بثقة باردة: لست وحدك.

«لكنه يحلم وحدَه، أن يصلَ فيخلع لباسَه العسكريّ، ليرتديَ ثوباً فضفاضاً نظيفاً، معطَّراً بطيب صنعه الوطن.. لن يباليَ بعدُ، إنه متعَب جداً.. ولا أحدَ يريد أن يفهم، حتى لو قالوا أنه فقد كلّ شيء، وأنه لم يحقّقْ سوى المرارةِ والدهشة له ولأهله وناسه الذين ظنّوا أن غربتَه في كلّ مكان ستثمر من أجلهم، الذين قدّموا له كلَّ شيء حين قال سأعيدُ لكم كلّ شيء، ولكن منذا يستطيعُ أن يعيدَ كلّ ما ضاع ؟ ألا يكفيه أنه حاول، ودفع الثمن شباباً وأحلاماً.. حقاً آنَ له أن يعودَ

ولو بكفَّين خاليتين، ولن يخشى أحداً بعدُ.. ليظنُّوا ما شاؤوا، فهو يريد الراحة مع امرأةٍ اختارته.. فاختارها».

عندما يصل سيخلع هذا الحذاءَ الضخم الذي كاد يأكل من قدميه، سيأمرها.. يعني سيطلب منها أن تملأَ طستاً بالماء الساخن، وتأتي به إلى غرفة نومِهما:

ـ ألستِ تسمّينَني جدَّك الصغير؟ فلنكن مثل جدّي وجدّتي مرّةً واحدة، أضيفي إلى الماء ملحاً.. سأضع قدميّ فيه، وتدلكينَهما أنت بأصابعك اللطيفة.

«ربما تعجّبت، لكنها ستفعل، أصبح يعرفها إلى حدّ أن يتوقّعَ منها تلبيةَ رغَباتِه الصغيرة، حتى لو فاجأتها»

ـ مالك تتباطأ؟

ـ أنا في قمّة نشاطي ولهفتي للوصول.

ـ فورَ وصولِنا سنتخلّص من لباسك العسكريّ هذا، سنحرقه.

ـ لا، سأحتفظ به.

مطّت شفتيها: إنه ينشر رائحة كريهة، لابد من غسله مرّاتٍ..

«سيتمسّك برأيه هذه المرةَ»

ـ لا لن أغسلَه، إما أن نعتادَ رائحته، أو أن تتلاشى مع الوقت!

ـ وأين سنحتفظ به؟

ـ سأخصِّص غرفة لملابسي العتيقة، لسلاحي وأوراقي الصفر، لقصاصات الصحفِ والصور التي تراكمت.. وتحمل نكهة حياتي التي مضت.

ـ كل هذا ماض، شيءٌ مضى.. أنا أحبّ المستقبل.

وشمخت بأنف دقيق لم يألَفِ الهواء الحارّ.

ـ بالطبع، أنت المستقبل وأنا الماضي الذي يريد أن ينسى نفسه معك.

ـ وكيف نعيش معاً؟

ـ أنت تجيبين على هذا السؤال.

ـ لابد من وجود صيغة تضمن استمرارنا معاً.

نظر إلى الأمام وهو يحسُّ وقع نظراتها الشابةِ القوية على جانب وجهه المترهِّل.. على عينه المتعبة، على فردة شاربِه الذي يكاد يلامس طرفَ شفتِه السفلى الغليظة..

استمرّا في السير صامتَين.. لا شيء يعوق سيرهما سوى هباتٍ من الهواء.. تحمل ذرّاتٍ من الرمل فتلسع جلدهما أحياناً.

تسوّي شعرها يتمرير أصابعِها فيه من الجبهة إلى قمة الرأس، برشاقة وعفوية.. ويسوّي هو شاربه باعتزاز.. دون أن ينتزعَ ذراعه من ذراعها.

المشهد (بعد يومين)

أمام بوابةِ الدار الكبيرة الساكنة.. تزيّنها النباتات المتسلقة، وتعرّش في شرُفاتها البيض.. وحيث استُقبِلا في اليوم السابق بالزهور والحجارة.. وجدا جثة شابّة باهرة الجمال، ذاتِ سَمت قويّ وجليل.. لم تختفِ بعدُ علاماتُ حزنٍ قاهر عن قسَماتها.. كان الجسدُ دافئاً وطرياً، وكأنها لفظت أنفاسها هذه اللحظةَ.. لم يبدُ عليهما ذعر..

ـ من هذه ؟

ـ تسمعين بعادات بلادِنا وتقاليد عائلاتنا، سمَّوها لي وسمَّوني لها مع مطالع الصبا..

ـ ربما اتُّهمت بقتلها.

ـ مستحيل، كنا نعتبر حبيبين.

ـ ألا يحدثُ أن يقتلَ حبيب حبيبه؟

ـ لابد من دوافع.

ـ اليأس من اللقاء مثلاً.

ـ يأسُ مَن فينا؟

ـ لعلها يئست من لقائك فانتحرت أمام دارنا.

ـ هذه لا تنتحر.. ماتت غماً.

ـ لازلت تفكر فيها.. تحبّها؟

ـ لم يعدْ هذا مهماً الآن.

ـ أما تزوجَتْ وقد غبتَ عنها هذا العمر؟

ـ بلى.. أحد أولادِها رمانا بالحجارة أمس، بعضُهم مدّ لنا لسانه.

ـ ما كان أعنفَهم وأقلَّ تهذيبَهم.

ـ بدا فيهم عنفوان الأم.

ضربت الأرض بقدمها: تريد إغاظتي ؟

ـ أنا عاجز حتى عن هذا.

ـ ماذا سنفعل بجثتها؟

ـ كم هو تعبيرٌ ثقيل: جثتها..

قالت بلهجة مسرحية ساخرة: ماذا سنفعل بجسد الجميلةِ النائمة؟

أتاها صوته من بعيد، من أعماقه التي شاخت ربعَ قرن آخر:

ـ سندفنها أنت وأنا في غرفة الذكريات.. تلك التي خصصناها لكل عتيق.

ـ مادمت ستدفنها في بيتي، فهي لم تمت.

داهمتهما فجأةً رياحٌ باردة هوج.. تساقطت أوراق صفر، وخشخشت أوراق أخرى بقوة.. صانعةً حولهما دوامة.. لملمت ثيابها حولها.

ـ برد فظيع.. أسرع، أحسُّ رياحاً قوية قادمة..

قال وهو يلفّ حول جسمِه ثوباً يبدو أكبرَ من حجمه، وكأنه يخشى أن ينتزعه الهواء:

ـ قد تكون ريحاً صرصراً، هيا ساعديني..

أمسك بالجسد المستلقي أمامه في مهابة من تحت الذراعين.. هوذا يلمَسه.. لم يكن أقربَ إليها يوماً منه الآن.. ارتعش وأحسّ بأنه يشتعل، وكأن دماءه تتراكض في عروقه مذعورة، ثم تتجمّع كلُّها في القبضتين والأصابع العشر والأنامل، وتكاد تتفجّر من تحت الأظافر: «**هل تَزَلزَلُ الأرض تحت أقدامهما؟**»

جرّ الجسد إلى الداخل والمرأةُ تمشي أمامه، تفتح الأبواب وتزيل ما يعترضُه.

المشهد قبل الأخير

في الغرفة المعتِمة التي استُودِعت الذكرياتِ والغبارَ والبرودة، أمسك بمعول و بدأ يحفر:

ـ هل ستبقَين هنا ؟

ـ سأساعدك حتى تخفيَها تماماً.

مشهد قد لا يكون الأخير

(رجل شرطة يحرِّر محضراً أمام الدار، وقد اجتمع حوله الجيران)

ـ لقد شاهدتها، أقسم بالله! بعد منتصفِ الليل، تخترق الجدران

والنوافذ، في ثوب أحمرَ يكاد يشتعل على جسمها الجميل، تهمس فيتردَّد صدى همسِها واضحاً في أذنيّ: أين تذهبان مني؟

ـ أما أنا فأسمعُ منذ ليالٍ زعيقَ المرأة الغريبة، وصيحاتِ رعب وصفقَ أبوابٍ ونوافذَ، حتى جارُنا يبدو فزِعاً وهو يهدِّئُها.

ـ اسمعوني أنا.. لقد رأيته الليلةَ يغادر الدار كالهارب، نصفَ عارٍ (يضحك المتحدث) وهو يصيح: اتركيني! لا أستطيع.. لن أستطيعَ بعدُ، اتركيني! عودي إلى قبرك.

علّقتِ امرأة مليحة ذاتُ نظرةٍ قوية، كانت تهزّ رأسها بالموافقة طولَ الوقت:

ـ لقد شاهدتها تغادرُ الدار فجرَ أمس، وهي تلوّح بذراعها مهدِّدة.

سأل جار: هل ستقفل المحضر قبل أن نعرفَ الحقيقة حضرةَ الشرطيّ؟

أجاب الشرطيّ بصوت رسميّ:

ـ لا، طبعاً.. يجب أن نجدَ الرجل أيضاً، لقد اختفى..

لم لا تأتي إلينا؟

تسـألُني يا صغـيـري أين أنامُ يا أمي، وأنت كلّمـا سـألتَني وأنا بين النومِ والصحْو، وأنـا إلى النوم أقربُ مني إلى الصـحـو، وجدتُ لسـاني يكاد يقـول: ولم لا تنـامُ في قلبي يـا حـبـةَ القلب، لم لا تتـوسَّـدُ ذراعي وتفترشُ أهدابُك الضاحكة مُقلتيَّ، هنا مكانُك يا بنيَّ فتعـال إليّ، تعالَ أعبثْ بشعرك الجميل، تعالَ أُخْفِ جسمَك الطفلَ في صدري.. تعـالَ أيها الحبيب، يا قرّةَ العين، وسكينةَ الروح.

يكاد لساني يقول ما يتمنّى أن يقولَه كلَّ يوم، ثم أجدُني يا بنيَّ أنتبهُ إلى أنه ليس كلُّ ما يقولُه القلب يستطيع اللسان أن يقولَه.

وأنا بين النوم والصـحـو يا صـغـيـري، وأنـا إلى النوم أقـربُ منـي إلى الصحو، وفي ليلة عاصفةٍ لا ندري من خوفها إلا رائحةَ التراب مسَّهُ خيرٌ من السـمـاء، وأصـواتاً مـخـتلطة لا تمسُّنا بسـوء، بل ننتظرُ الصـبـاح لكي يخبرَنا ماذا فعلتِ العاصفة بمن لم يجدوا بيتاً كبيتنا وحصناً كحصننا..

في ليلة كهذه أجدُنا معاً، أنت في أحضـاني، نعود إلى وراءَ وراء، كم عاماً نعود؟ ألفَ عام؟ بل هي أكثر، بل هي أكثر.

أنا وأنت في مدينة.. وحدَنا، أضـمُّك خوفَ العاصفـة.. وأنت تبكي تقول: أبي!

أضـمُّك وأُصـيخُ السـمْع يا صـغـيـري، أسـمعُ خطواتٍ أمـامَ دارِنا الصـغـيـرة، لعله هو..بلا ريبٍ هي خطواتُه، ذاك الذي نتـمنى جـمـيـعـاً عـودتَه، ومَن سِـواهُ يمشي في ليلة كـهـذه، هي ذي درَّته تقـرع البـاب.. وصوتُه العظيم الذي حلَمت دائماً بسماعه، يأتيني، يقول:

ـ يا امرأة! لماذا يبكي ابنُك؟

ـ لا شيءَ يا سيدي!

أرتجف سعادة وأملاً وتهيُّباً:

ـ أهو جائع فنأمرَ لك بطعام من بيت مال المسلمين؟

ـ بل هو شبعانُ ريّانُ يا سيدي..

ـ أهو مريض فنأمرَ له بمن يتعرَّفُ مرضَه؟

ـ بل هو في أتمّ عافيةٍ يا سيدي.

ـ افتحي الباب لأمير المؤمنين يرَ الصغير.

ـ ابني يسأل عن أبيه يا سيدي

ـ وأين أبوه؟ لعله مات..

ـ لا يا سيدي

ـ فلعله دعاهُ داعي الجهاد

ـ ليته كذلك يا سيدي.

غـضب الصـوت العظيم في صـدر الـرجل العظيم، وأفـتحُ البـاب، ونقف: أنا وراءَ البـاب وأنت تواجـه الرجل، أرى كفَّه تـربِّت رأسك.. ثم تمتدُّ ذراعاهُ لحملك.

وأصـمت.. تعلمت الصـمت والخـوف، دائمـاً خـوفٌ فـصـمت: على اللقمـة نخـاف فنصـمت، على المـأوى نخـاف فنصـمت، على الأنفـاس أن يتوقَّفَ صعودُها وهبوطُها نخاف فنصمت، أليس الصمتُ من ذهب، وليس بعد الذهبِ من قيمة في هذه الدنيا:

ـ أين هو زوجُك يا امرأة؟

ـ سجينٌ يا سيدي..

ـ لعله قتل فهو بانتظار جزائه العدل

ـ لم يقتلْ يا سيدي

ـ لعله سرق فهو بانتظار أن تُقطَع يدُه..

ـ لم يسرقْ يا سيدي..

ـ لعله قبِل رشوة أو قدّم رشوة، لعلّه غصب أرضاً أو مالاً..

ـ هو يا سيدي ممَّن آمن بالله العزيز الحميد!

ـ ويحك.. فلعلّي نمت عن حق، وظلمت مسلماً دون علم!

أهو صـوتُه أم صوتُ العـاصـفـة.. وَيحـي إن كنت أخطأت من حـيثُ أردت قولَ الحق!

ارتعـدتِ الأرض من صـوته، وارتعـد قلبي..وهَرِعت إليَّ يا بنيّ.. نرهِف السمع سويّا: يا غلام! ادعُ الحرس والعسس، وكلَّ جنديٍّ في المدينة.. قل لهم بأمر أميرِ المؤمنين الآن تجتمعون، على باب هذه الدارِ تقفون، ثم تبحثون.. تقولون أين الرجل.

ـ كم مضى على غيابه يا امرأة؟

ـ سنواتٌ يا سيدي..

ظننتُه يصيح بي: كذبت فما في سجننا مَن يُسجن سنوات، لكنه حَوقَل وردّد: سنواتٍ.. سنوات..

وجلَبةٌ وأصوات تتراكض حول دارِنا الصغيرة.. وأنفاسُ الرجالِ مبهورةٌ أكاد أُحصيها..

ـ لم نجدْهُ يا أميرَ المؤمنين.

ـ فهل اختطفه جانّ أم ابتلعته الأرض؟ ومن أين يا امرأةُ تأتين بكلام لا نعرفُه، وخبرٍ لا نألفُه؟!

ـ أنا لست من زمنكم يا سيدي.. أنا من زمن الغُثاءِ والوهن، أنا من زمن ليس فيه مَن يقول: خيرُكم مَن أهدى إليَّ عيوبي، أنا من زمن ليس فيه مَن يخافُ الإمارةَ وهي تطلبُه، ليس فيه من ينكر المنكر على القويّ قبل الضعيف، أنا من زمن ندَر فيه مَن إذا سيم الخسفَ قال: لا، بملِء فيه..

ـ ولماذا تأتينني والجوابُ هنالك بين يديك.. عودي يا ابنتي، لعل اللهَ يجعلُ بعد عسرٍ يسرا.

وأنا بين النومِ والصحو أهرب، أتراجعُ خَجلى.. أخافُ كثيراً أني أحزنت أميرَ المؤمنين.

وأضمُّك يا صغيري، وأنت تبكي وتناديه: لم لا تأتي إلينا.. لم لا تأتي إلينا؟!

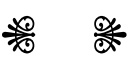

لا غربة بعدُ

غمره التعب إلى حدّ الحزن، رأى أنه لن يرفعَ بعدُ يداً ولن يحرّكَ جفناً، استسلم تماماً كما تمنّى منذ زمن، وتنفّس رائحة الخلاص الموجعةَ التي لن يصفَها لأحد، إنه اكتشاف خاصّ جليل، لا يليقُ به سوى الصمت.

أحسّ بكفّها على جبهته جافّةً وحنوناً..تمنّى أن يرفع كفّه ليضعَها فوق تلك الكفّ، تمنىّ أن يقول لها: كانت لك يدان طريّتان.. من زمان..زمان، قبلَ زمانِ الخيام.

لم يستطعْ..لايريد، عزيمةُ الاستسلام أضحت أقوى؟ كيف؟

يسمع أنينها، لا تُعوِل ولا تصرخ، تئنّ كما فعلت يوم هدموا البيت: يومَ دخلت بين غبارِ الحجارة وغبار البارود لتخلّصَ مِزقة من هديته: منديلٍ أحبّ أن يراه يحتضن شيئاً من شعرها الأثيث..

إنه، مغمضَ العينين، يرى كيف ترسم الدمعة الصامتة خطوط وجهها، يرى كيف تُخفي بكفّها ارتجافة شفتيها، كيف تذهب عيناها بعيداً نحو الأفق الذي لا تجد فيه جديداً ينعش منذ ربع قرن، يرى كيف تشمَخ ولا تدعُ أحداً يرثي لها.

إنه، مُشرعَ الأذنين، يسمع حائراً إلحاحها الهامس: قل لا إله إلا الله، قل أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. إنه يقولها، يردّد مفرداتِها بهناءة منذ أدار ظهره للدنيا واختار الصمت.

تريده أن يحرّكَ لسانه بتلك الكلماتِ الشجيّة الهنيئة التي تصعد وتهبِط مع أنفاسه، تدغدغها النبضة بعنفوانها المحبَّب إلى رئته، لترسلَها الرئة بكل أمانة إلى الشرايين، فتنطلق مع دمه الوفيّ وتتغلغل بين الخلايا لترسمَ حوافَّها برقة غامرة، فيحسّ أنه يغتسل ويتطهّر.. يتعطّر لينفلتَ خفيفاً بلاجسد، وتعود الكلمات الخالدات مع الدم الوفيّ لتتدفّقَ مع الأوردة إلى القلب من جديد، فينبض بها من جديد، ويدفعها محبوراً مبهوراً إلى الشرايين لترسمَ حدود كل خليّة، وتسمع منها البوح بالحبّ المتجدد.

إنه يردّدها، وهي لا تريد أن تسمع، اليومَ لا تريد أن تسمع! وهي التي اعتادت أن تسمعَ كلماتِ قلبه، وترى كلماتِ عينيه من قبل الكلام.

يسمع الآن نداءها الحازم: يا أولاد!

ثمة همهماتٌ وحوارات..هو ذا كبيرُهم.. مأواه أقربُ وقد أحضر ولديه.. وما أحبَّ وقعَ قدميهما.

هل سيكون فرحٌ أم حزن حين يتحقّقون أنه وجد أخيراً أمتاراً يستقرّ فيها لا يزحزحه منها شيء إلا نفخةُ الصور: لا الصواريخُ ولا القرارات ولا المؤتمرات ولا الخوف المخيِّم على الأنفاس واللقيمات؟

سيسامحونه، سيقولون، وسيسمعهم: «كم اشتهى أن يكونَ له بيت، وأن يكونَ البيت في الوطن، كم رفض البيت دون وطن، قال: البيوت البعيدة تنسيكم الأوطان الحزينة»

وإذا كنتَ منهكاً إلى حدّ الحزن، غريباً إلى حدّ الموت، فهل يحتاج فعل البكاء جهداً كثيراً؟

تحدّرت دمَعات على الصدغين الجافين، تعرّجت في خطوط مألوفة، حرّرت بملوحتها الدافئة اللذيذة نفثةَ سعادة شجية ومنعشة من صدره المهاجر طولَ العمر، واكتشف راضياً هناءة النهاية في معركة استمرّت، إلى درجة أن نتائجها لم تعد تهمّ أحداً.

أخبار طيبة

كم مرةً سأقرع الباب الخشبيّ القديم.. في حارتكم الضيقة، وكم مرة ستخرج أيها الفتى لتعتذر، فأرثي لعرجك الخفيف، وأرتاح لوجهك الصبيح..وأقبض على يد صغيري أفرغ فيها بعض حزني ونفاد صبري..؟

ـ آسف.. غير موجود، آسف..ظننته سيعود اليوم من المصيف، أنا خجلان منك والله.. تعرفين أن سنّه لم تعد تسمح.. لم يعد اليوم.. أرجوك، تفضلي بالدخول.

جلست قليلاً في غرفة قديمة.. لولا هذا الفتى لظننت أني في بيت مهجور.. لكنه يعبق بأُنْس أعوام مضت.. في شكل الكنبة ذات الخشب المحفور المذهَّب، في القماش الثمين يحمل صوراً طبيعية حائلة اللون يغلّف كل كنبة، في أطباق الصيني الشهيرة برسومها الزرقاء معروضة على طاولة في وسط الغرفة.. (الكُتبيّة) وهي أرفف داخلة في الجدار رُصَّت فيها أطباق وفناجينُ وأكواب يُبهِج، عادةً، أصحابَ الدار أن يراها زوّارهم، ومن سقف الغرفة تدلّى سلك ينتهي بثريّا قديمة بسيطة لا تتناسب مع غيرها من الأثاث، إضافة إلى فقدها ثلاثة مصابيح.. ثمّة خيوط عنكبوت تتدلّى من إحدى الزوايا..

بلاط الأرض أبيض محلى بمربعات صغيرة سود.. باب الغرفة طويل نحيل ذو مصراعين ومِقبض شبهِ مخلوع.. النوافذ عالية عن الأرض تطلّ على فسحة سماوية، تبدو منها أجزاء من شجيرات متكاثفة يانعة الخضرة..

أأنا في متحف لا يلقى العناية أم في غرفة من بيت عربيّ الطراز، قديم، فقد رجاله ونساؤه الرغبة في الحياة فجأة.. فإذا بجماله يشحَب دون أن ينتهي..؟

وما الفائدة من دخولي بعد ما شاهدت من خجل هذا الفتى، ذي الستة عشر ربيعاً.. ولا ربيعَ سوى في عينيه الخضراوين، يجمّلهما جحوظ خفيف وأهداب كستنائية كثيفة في وجه شاحب باشّ..

أحضر الفتى كأساً من الشاي لم أستسغ ثقلها وحلوها، ارتشفت رشفة ثم أعدتها إلى طاولة صغيرة أمامي..

ـ في أي صفّ أنت؟

ـ تركت الدراسة منذ..

ـ آه..نعم، وإخوانك كذلك؟

ـ كلهم تركوا المدرسة.. الصغير فقط يتابع، إنه الآن في السنة الرابعة.

ـ خيراً.. تعملون جميعاً في المكتبة..

ـ نعم، نتناوب.. أخي الأكبر في الخدمة العسكرية..

ازدردت ريقي.. الأب الذي أحاول رؤيته منذ أسبوع غير موجود.. متى سأحظى بهذا اللقاء.. متى يا ربّ!

تحدثت بتردّد وخجل وكأني تلميذة جديدة..

ـ تمنيت ألا أثقل عليكم.. لقد سمعت من بعضهم.. لكن تعرف، أتمنّى أن أسمع بنفسي..

هزّ رأسه الأشقر.. بدا معتاداً سماع هذا الكلام.. ابتسم وقال:

ـ طبعاً.. معك حق، أبي يحبّ ذلك.. يريد أن يُطَمْئِن الجميع.

ـ جزاه الله كل خير.. قلتها من أعماقي

ـ متى أعود إذن..؟

ـ غداً.. وعدني أن يكون غداً هنا إن شاء الله.. تفضلي بعد العصر..

خرجت إلى الدهليز الواصل بين الباب الخارجيّ وساحة الدار.. لمحت نوراً وأشجاراً.. وفستقية صامتة في بحيرة من الرخام المجزّع.. أوراق الشجر تتناثر على الأرض بكثرة.. ولا حياة في الدار..

أصبحت في الحارة المعتمة.. في حيّ قلما طرقته من قبل.. أسمع عن عراقته ورطوبته وجمال دوره المختبئ خلف الأبواب السميكة الكئيبة والجدران العالية.. دور كالقلاع من الخارج، وجنان أرضية في الداخل..

تململ صوت ابني..

ـ سنعود مرة أخرى يا أمي؟

ـ نعم.. لا بد أن نعود.. ألا تريد الاطمئنان على أبيك؟

ـ بلى.. هو رآه؟

ـ هكذا قيل لي..

ـ يعني.. كان معه في السجن؟

ـ لست أدري.. أما سمعت بنفسك.. أما رأيت؟

لم يأبه ابني بثورتي التي يعرف مداها..

ـ يعني.. هو كان يعرف أبي من قديم..

ـ كان جارهَ في بيت أهله.

ـ يعني جدّي كان يقيم هنا، في هذا الحي؟

ـ نعم.. كان البيت في موقع قريب.. بيع ثم هدم

ـ ومن باعه.. لماذا باعوه؟

ضربت ساقي بقبضة يدي الممسكة بيده!

برطم ابني ذو الأعوام التسعة.. وصمت.. وسعدت بصمته لأشقَّ طريقي بين المارة الذين اكتظّ بهم الشارع.. في أمسيات الصيف يكثُر الناس وتصبح خطواتهم متكاسلةً متقاربة.. يجب أن أظفر بسيارة تعيدني إلى بيتي قبل حلول الظلام.

وتحاصرني صورة تلك الغرفة التي كنت فيها؛ من جديد.. لقد بلغ

حزن ثماني سنوات مبلغه في ذلك البيت الجميل الأصيل.. إن كلّ زاوية فيه تشكو إهمالاً لا تستحقّه.. أين هم.. ماذا فعلوا في غياب أبيهم، وكيف هي أمهم، ماذا تفعل؟ كيف كبِروا، كيف استطاعت.. كيف أصبحوا هكذا متّسقي الأجسام وسيمي الوجوه، لبِقي الحديث؟

عرفت الأب من خلال أحاديث زوجي.. جار قديم ودود، تميّزه صراحة وعصبية في الطبع ونكتة لاذعة.. على مكتبته إقبال ومعظم مبيعاته من الكتب المتخصصة في علوم العربية والدين.. وكان يوماً حزيناً طويلاً ذلك اليوم الذي بلغَنا فيه نبأُ اعتقاله.. لم يخفّف عنا سوى أخبارِ المزيد من الاعتقالات في ذلك الزمن الباكي دموعاً ودماءً ورعباً..

أَدْمَنّا ذلك زمناً ليس باليسير.. وكنت أظنّ أني بمنجاة من هذا الوباء.. وأن زوجي لا اسم له في تلك القوائم السود التي لا ندري كيف كتبت، ووفق أيّ معيار..

لم نكن نملك مشاركة أكبرَ من الحزن ودمعة القلب.. إن الإخلاص لمن تحبهم حتى دون أن تعرفهم، يأمرك بذلك أمراً لا خيار لك فيه.

الشارع على ازدحامه هادئ.. ربما بسبب الإضاءة الخفيفة..ربما لأن الناس أصبحوا أميل إلى الصمت.. إن أصوات الباعة هي المهيمنة: كازوز بارد، بوظة، ذرة مسلوقة، ذرة مشوية.. مع الرصيف يمشي الباعة يدفعون عربات بأيديهم.. أو يتخذون زاوية من الرصيف مركزاً لهم.

ـ أريد ذرة مسلوقة..

ـ لا أحب أن نركب وأنت تأكل..

ـ عطشان.. اشتري لي (كازوزة)

ـ سنحتاج للوقوف حتى نَرُدَّ الزجاجة.

ـ أرجوك، بوظة.. عطشان.. مشينا كثيراً

تكور خدَّاه تحت عينيه الطفلتين وهو يمثّل أنه يبتلع ريقه بصعوبة ليقنعني، ثم برطم من جديد.. والتمعت عيناه: كل شيء ممنوع، لماذا أنت مستعجلة؟ سنصل البيت، ماذا في البيت؟

ماذا في البيت، معه حقّ ابني.. لماذا أستعجل العودة؟ ماذا سوى الوحشةِ والصمت وجمال المساء يعتصر قلبي، وأنا أروي أحواض الزريعة التي تنمو باطّراد في الشرفة، أتذكر كيف غرس الأب الغائب كل نبتة فيها وكيف رعاها وكيف سقاها..

ولما تماسكت وجدتني أسأل ابني: ماذا قررت؟ ذرة أم كازوز.. نظر إليّ دهِشاً فرحاً وهزّ كتفيه: كما تحبين..

تمنيت أن أحتضنه أمام هذا الجمع من البشر.. أن أخفيَه في أعماقي..اشتريت له ذرة مسلوقة.. تفوح رائحتها شهية طازجة تميّز هذا الفصل من العام.. أواخرَ الصيف.

لفّه البائع بورق صحيفة بعد أن انتشله من القِدْر الكبير ة التي ينعقد فوقها البخار، وأغدق عليه الملح جيئة وذهاباً..

ـ أليس من الأفضل أن تنتظر لنغسله في البيت..

صرخ محتجا وهو يستعدّ للقضمة الأولى رغم حرارتها: ماما!

ـ لا بأس كُلْ، لكنّ حبر الصحيفة ضارّ.

اشتهيت واحدا.. آكله ماشيةً كما يفعل الناس من حولي، لكني لا أستطيع أن أفعل ذلك وأنا وحدي.. ليس من يشاركني كلمة أوفكرة..

أواخر الصيف..

كيف اتفق أن آتيَ في أواخر الصيف، لأطمئنَّ على زوجي الذي اعتقل منذ سنوات في مثل هذا الوقت من العام.. في صباح جميل وآسر، خرج ولم يعد.. مثل آلاف غيره.. ثم أصبح السؤال عنهم جريمة.. لابد أنه، وقد غاب كلَّ هذا العمر، صُنِّف مع المتآمرين على أمن الوطن وسلامته.. تتكرر هذه الظاهرة كثيراً في بلادنا.. الصائمون المصلون المتسنِّمون ذرا الطهارة والاستقامة يتآمرون على أمن الوطن.. لعلها مصادفة..

هذا الشارع خبرته أثناء دراستي كثيرا.. كنت أحضر لتغليف أماليَّ الجامعية، ثم أغتنم الفرصة فأتفرج على واجهات المكتبات التي تملؤه.. كانت متعة كبيرة ودون مقابل: الكتب الجامعية والروايات والدواوين الشعرية، والمؤلفات القديمة الرصينة أعيد طبعُها أو تحقيقها في أثواب جديدة قشيبة.. تفتنّ كل مكتبة في عرض مبيعاتها..كلّ الجامعيين يجدون ما يبغون من كتب ومراجع.. وكذلك محبّو القصص

والتسلية.. وكذا الأطفالُ يجدون حكاياتِهم وأدواتهم المدرسية.. هنا كان عالم جميل أحببته أثناء دراستي.. كان أجمل العوالم إلى أن رزقت بابني هذا الذي أقبض على كفّه الصغيرة، ولا أبالي أن يأكلَ بصعوبة بيد واحدة، لأن كفّيَ يجب أن لا تفلت كفّه أبدا..

بعد تراكض من مكان إلى مكان ظفرت بسيارة تقلّني وصغيري إلى البيت.

بين الحين والآخر لابد أن نعود إلى هذا الموضوع.. يجمع ابني أصابع يده الخمس معاً كمن يستمهل ويتساءل ببراءة وحماس: لماذا، لماذا.. لا أعرف.. لماذا لا أراه ولا مرةً واحدة.. كيف؟ لا أفهم، أتمنى.. يا الله.. لو يخرج..

ـ لست وحدك في ذلك.. أنت تعرف

ـ أعرف.. أعرف..هم كثيرون وصابرون، وسيفرّج الله عنهم، ولكن.. طارق مثلاً.. يعرف أباه.. ليس مثلي.. يتذكره تماما.

ـ إنه أكبر منك..

ضرب سريره براحة كفّه وقال بلهجة مستسلمة:كأني دون أب.

ـ ألوف الأطفال المسلمين لا أب لهم ولا أم ولا بيت.. فانظر.. ألست في نعمة كبيرة؟

ـ بلى.. الحمد لله..

ابتسم وهو يتلقّى قبلتي، وبدأ يتلو الآيآت والأذكار.. وانتظمت أنفاسه قبل أن ينتهي.

أجري وراء سراب.. مع كل خارج من السجن.. وما أقلَّهم، لن أسمع سوى الكلماتِ المعهودة: هو بخير.. اطمئنّي..شطر العبارة يذكّرني دائماً برسائل الفلسطينيين إلى ذويهم خارجَ فلسطين: اطمئنوا وطمئنونا عنكم.. تلك الرسائل التي طالما سمعتها وبكَيت مع أصوات العجائز والشيوخ والفتيان والأطفال يحمّلون الأثير رسائلهم العاجزة عن كلّ شي.. عن تصوير اللوعة والحرقة والشوق، وعن تغيير ما هم فيه، هي تؤكّد فقط أنهم على قيد الحياة..أما زوجي السجين فيصعب أن أعرف باستمرار أنه على قيد الحياة..

لكني سأذهب، لن أكتفيَ بما وصلني عن طريق الناس، سأذهب من أجل الطفل الذي يحلم بخبر عن أبيه وقد بات يائساً من رؤيته..

وكيف أقضي هذه الليلة، وسحابة نهار غد؟.. أتأمّل الليل وسكون الشارع الذي يزداد.. أحلم أن عودة زوجي وشيكة طالما أن ذلك الجار العزيز عاد؟ وما الفائدة؟ ما الذي سيختلف بعد الزيارة؟ أما اعتدت؟ بلى.. كثيرا! وإلى حد يذهلني ويخجلني..

حرن الدمع.. وأقبل النوم جريئاً مع نسمات رخيّة معتدلة تتسلّل من نافذتي المفتوحة..

ز ز ز

طرقت الباب من جديد.. وقلبي ينتفض.. فتحت الباب هاشّةً باشة امرأة تقارب الخمسين.. بوجه قمحيّ كئيب رغم الضحكة فيه، عرّفتها بنفسي فازدادت ترحيباً وأدخلتني غرفة الأمس.. طلبت الشاي من ابنتها الصبية الجميلة.. وعدتني بحضور زوجها فورا..

ـ الحمد لله.. لا تيأسي.. لقد تعبت كثيرا، وأخيرا فرّجها الله

ـ الحمد لله..

شاركتها وعشرات الأسئلة تتدافع.. ليتني أعرف قصتها منذ اعتقل زوجها وحتى لحظةِ خروجه.. لكنها كانت تتحدث دون سؤال:

ـ ياه.. كان يوماً.. لم نصدق.. أنزلوه قريباً من الباب.. بعد الظهر.. كان ابني الأكبر قادماً من رأس الحارة.. تخيّلي ظنه عمّه.. لم يتوقع.. حين اقترب ورآه.. سقط فوراً على الأرض.. لم تحمله رجلاه.. فتحنا.. فتح ابني الآخر، ارتمى على أبيه.. شيء لا يصدق، الصغير لا يعرفه.. حين قلنا له هذا بابا التصق بي.. لم يألفه إلا بعد أيام..

ـ وأنت (كيف أخفي لهفتي؟) كيف استقبلت هذا..؟

ضحكت.. تنحنحت وشدت ثوبها عند الخصر، وأجابت كالمحرجة:

ـ أنا.. ناداني الأولاد.. تعالَي.. كنت في المطبخ.. عندنا زائر يريد أن يراك.. أقبلت..لم لا يقولون من هو..

توقفت عن الكلام.. ثم أضافت: الحمد لله.. ما بعد الضيق إلا الفرج..

ـ وصحته..كيف كانت..

كيف يسبقني لساني هكذا.. أضع أصابعي الفضولية على مواضع الألم.. لماذا أعذّبها وأعذّب نفسي؟

ـ الحمد لله.. هو أحسن كثيرا الآن.. قبل دخوله السجن كان يشكو ضعفاً في عينيه ومعه عصبي..

ـ عافاه الله..

وسمعت صوت الرجل، لاشك.. وصل ينتعل حذاء منزلياً ويخفي منامته بثوب جيد التفصيل، يبتسم بحنوّ وأبوة وراء نظارة سوداء.. دخل بخطى بطيئة، وانحناءة خفيفة في ظهره.. علا صوته بالترحيب.. ثم جلس يتذكّر جيرانه وابنهم الفتى ثم الشاب.. أأسأله فوراً أم أتركه يتحدث.. وماذا أسأل؟ إنه لَيعرفُ ما الذي أتى بي هنا، وحسنٌ منه ألا يكلفَني حرج السؤال.

ـ طمأنت كثيرين، جاءني كثيرون.. لم أخشَ أحداً، قيل لي إني مراقَب، لا يهمّ.. ماذا سيفعلون بي أكثر..؟!

من خلال ابتسامته كنت أرى أسنانه خالطها السواد وبعضها اختفى.. ظننته يبدو أكثر شيخوخة ومرضاً وكآبة.. إنه يتحدث بالروح نفسها التي تخيلتها من خلال حديث زوجي عنه.. وبخاصة النكتة الحاضرة التي لا يوفر فيها نفسه..

ـ أرأيت أسناني.. الحلوى كثيرة في السجن..

لم أفهم، وبدا كأن ثمة لغزاً بين الزوجين.

لم أعد أستطيع التروّي..

ـ تعتقد أن الجميع سيخرجون قريباً..

ـ هذا هو المفروض.. منذ عامين أنا في سجن مختلف.. ممتاز.. الحمد لله.. لولا هذان العامان ما رأيتني الآن على هذه الحال.. لكني لا أملك أن أعِدَ.. لا يمكن.. الثقة مستحيلة..

والتفت إلى ابني الصامت طوال الوقت وكأنه رآه اللحظة: ما شاء الله.. ابنك.. كأنه الأب الصغير.. ما شاء الله..

تمتمت بكلمات امتنان.. لكني في الانتظار.. وقلبي المضطرب لا يستطيع انتظاراً أكثر:

ـ رأيتَه هناك إذن؟

اعتدل في جلسته.. وكان يترك كفّيه تتدليان خارج ذراع الكنبة.. وقال برويّة:

ـ منذ عامين.. هناك.. قبل نقلي.. وصلني منه سلام خاصّ وتأكيد أنه بخير.. عن طريق سجين انتقل من مهجعه إلى مهجعنا.. كان قريباً مني لكني لم أره.

جدّتنا، دائماً

نتابع، بأعين محدّقة لا تكاد ترفّ أجفانها، حركاتِ كفَّيها وشفتيها وجفنيها.. نحاول أن نقرأ نظراتِها وابتسامتَها، لعلها تضيف شيئاً إلى ما تلتقطه الآذان..

لماذا كنّا نراها عجوزاً؟ عندما كبِرنا، وغزا العمر الجلود والجفون والأعناق، أدركنا، ربما كلٌّ في سرّه أو سرّها.. أن جدتنا كانت على قدْر من الجمال والأنوثة غُبِطت عليهما وحسدت في شبابها:

ـ يا سيسبانة بنت الغول، مدّي شعرك ليطول.. ويطلع عليه الشاطر حسن.

ترتسم في مخيلاتنا قلاع حجرية كئيبة.. شامخة.. وأقبية معتمة مخيفة.. نسمع أنّاتِ يوسفَ المسحورِ حيث خُدع فنام على فراش من الشوك وقطع الزجاج.. وتلتمُّ قلوبنا حول المحبة المجهولة وهي تسهر على علاجه.. وهو لا يدري.. إلى أن سرقت إحدى المخادعات جهدها وتضحيتها واختطفت منها يوسف الحبيب..

نحلَم بقصور بهيجة.. تنتقل فيها برشاقة جنّيات سبع، بنات عمّ.. يظهرن بصفقة كفّين من صبية وافتها حظوظ الحب.

نرى البدوية الحسناء العاقلة تأسِر لُبّ الملك المتخفّي، بكياستها وحسن تصرفها.

كانت جدتي تتحدث أحياناً وقد اتّكأت على قبضتيها كلتيهما عن يمين وشمال.. هي على القاطع، مقعدٍ طويل دون ذراعين، ونحن على الأرض.

شتاءً.. يجب أن يكون الباب مغلقاً حتى تدفأ الغرفة جيداً. أما في الصيف.. فثمة الجنينة والمصطبة.. ثم الشرفة.. بعد أن قضى الزمان بالتحوِّل إلى المدينة..

وتعيد جدتي قصصها كثيرا.. لعلّها كانت تغيِّر وتضيف كلما كبرنا، ربما بحسب ما يواكب من دواع، ربما بحسب دفَقاتِ الفخر والحزن والحنين.. حين ينجح أحد أو أمر، ربما دون قصد، في بعث قصة ما من مَرقد لا يتيح النسيان..

وأكثرُ ما كانت تعيده قصتُها هي، أعني حكاياتِ حياتها الممتلئة أمومةً وأنوثة، حزناً وصبراً وأملا:

ـ قلت لهم دعوها الليلة بين ذراعيّ.. لن تأخذوها.. وبقِيتُ الليلَ كلَّه وهي في حِجري.. برد جسمها بعد أن كان في حرارة الجمر، وسكنت أنفاسها الساخنة.. كنت أسوّي شعرها الأشقر بأصابعي.

ـ يا جدتي، هي أيضاً كانت شقراء مثل أختها؟

ـ نعم يا روحي.. كلهم جاؤوا مثل أبيهم..

عشراتِ المرات سألنا السؤال ذاتَه، ونحن نعرف الردّ، لكننا مسحورون بفكرة أن جدَّنا لأبينا كان شديد الشقرة أزرق العينين، طويلاً مهيباً، فارساً.. لم يعجبه أن يعملَ بالزراعة في أراضٍ ورثها.. وعمل بالتجارة، يتنقل بين دمشق وصفد ومدن أخرى من بلاد الشام.. ليعود إلى بلدته التي تزوجت جدتي إليها، وتركت دمشق.

ولا بد أن تتنحنح جدتي بين الفينة والفينة.. لا بد من ابتسامة ذكية حزينة تغير من ترتيب التجاعيد في وجهها القمحيّ:

ـ وقضيت الليل أبكي.. أبكي، وأقول يا راعيَ الحمى!

ـ ومن راعي الحمى يا جدتي؟

ـ جدّكم الشيخ.. جدّ العائلة كلها.. إنه مدفون هناك.. قريباً جداً من دارنا القديمة، والزاوية على اسمه.

كنا أصغر من فهم معنى هذا الكلام وأهميته بالنسبة لها.. كل ما نفهمه أن أبانا ينتمي إلى ذلك الشيخ..

ـ لم يستطيعوا أخذها مني، أردت أن أودّعها طول الليل.

ـ كم كان عمرها يا جدتي؟

ـ سنتين..

ـ وكذلك بدر الدين وعائشة حين ماتا.

ـ إرادة رب العالمين..

وتتنهد ويرتجف صوتها، وترفع إلى جفنها كفاً صغيرة.. متناسقةَ الأصابع إلى حدّ لا يخفى..

وتقول كبرانا: لا بد أنها حُمّى من نوع ما.. تتكرر دون أن تعرفوا سببها.. ألم تذهبوا إلى طبيب، ولو في دمشق؟

لا شك أن حواراً كهذا جاء في سنوات متأخرة نسبياً.. حين لم يعد من الممكن التسليم بموت ثلاثة أطفال، شقرٍ زرق العيون، في السنّ نفسها، أما قبل ذلك فقد كُنّا نستمع بقلوب حزينة واجفة.. وعقول مستسلمة:

ـ وظللت أبكي، في العتمة، وأنا جالسة على الأرض.

ـ ألم تخافي وطفلةٌ ميتة بين ذراعيك؟

ـ كنت خائفة من العتمة.. ومن الموت، لا أصدق أن ابنتي هذه أيضاً ستصبح تحت التراب.. كنت صغيرة..

ـ كم كان عمرك يا جدتي؟

ـ يمكن سبعةَ عشر.. يمكن

وتنطلق شهقات وآهات تبعاً لجِدَّة الخبر بالنسبة لكل منا:

ـ ماذا يا جدتي... كيف؟ متى تزوجت؟

تبتسم بفخر، ويعاودها عنفوانها الذي تنتقل إليه ببساطة من حالها السابقة:

ـ تزوجت في الرابعةَ عشرة.. بينما كان جدكم فوق الثلاثين..

تصرخ البنات: هذا فرق كبير.. حرام! ألأنه جميل وقوي؟!

ـ نصيب يا عيني.. هكذا كان زماننا..

ـ والبنت يا جدتي.. أكملي لنا..

هذا سؤال نافد الصبر ممن يتعرَّفُ القصةَ للمرة الأولى.

ـ تعبت.. قلبي يحترق: يا ربّ، يا ربّ، وفجأة سمعت وقع عصا.. رفعت رأسي، هذا هو كما وصفوه لي: وجه أبيض كالبدر ولحية سوداء.. طويل في عباءة سوداء فخمة، ورأس جميل تحت عمامة ملفوفة بعناية.. وزدت ارتجافاً وخوفاً، وبكاء: يا سيدي، سامحني!

ـ من هذا؟ من تقصدين؟

ـ الشيخ، جدّكم، راعي الحمى.

وكانت تخفف الياء كثيرا وكأنها تقول (راع) لتقفز إلى (الحِمى) مباشرة..

ـ رأيته، وعرفته، أحسست بإبهامه يضغط بين حاجبيّ، وسبّابته على مقدمة رأسي وهو يأمرني.. قولي: لن أبكيَ بعد، ردّدت وراءه فوراً: لن أبكيَ بعد.

ـ منام يا جدتي؟

ـ قلت لك رأيته.. هكذا..

طلع الصباح وأخذوا البنت من حِجري وقد غلبني النوم، فصحوت فزعة، غسّلوها وأخرجوها ليدفنوها إلى جانب أخويها.

ـ يا الله، ثلاثة أطفال، هذا صعب ويحزن جداً.

تمدُّ جدتي يدها لتعبثَ بأقرب شعر إليها وهي تقول بخفّة سعادة مفاجئة:

ـ الحمد لله.. عوَّضني الله بكم.

لا نفهم.. لم نفهم إلا بعد زمن طويل.. أطولَ من أن نسامحَ أنفسنا.. لم نفهم معنى أن ترى أمٌّ أحفادها بعد رحلة الوحدة..

ـ ولَمْ تبكي يا جدّتي حين أخذوا منك البنت؟

ـ لا، وعدته ألاّ أبكي..

ويعلّق صغير: خسارة، بقينا دون عمّ ولا عمّة.. ويتساءل: أما كان ممكناً أن تلدي أكثر؟

يمكن أن تنهرَه أخت أكبر.. لكننا جميعاً نرغبُ في سماع القصة الأخرى.. فنصغي إلى جوابها:

ـ طبعا يا جدتي طبعاً.. ولكن ألا تعرف أن جدَّك مات وعمرُ أبيك ستة أشهر؟

ويلطم الصغير خدّه لطمة خفيفة:

ـ أيضاً! يا الله..

وتفاجئنا جدتي بصوت مرح:

ـ كل امرأة وكل فتاة في البلد كانت تتمناه.. وتتلصَّص عليه.. من وراء النوافذ والأبواب.

ـ لكنه كان صعباً.. أنت قلت لنا.

ـ كان فارساً وشجاعاً، أما حكيت لك كيف عاد بالضبع الذي أرعب البلد على كتفيه، تربّص به على البيادر وقتله.. أما حكيت لكم كيف كان يقفز إلى فرسه.. بيه.. كنت أخافه.. وخصوصاً حين يسافر ويعود!

ـ وإلى أين كان يسافر؟

ـ إلى هنا.. إلى مدن أخرى.. كانت البلاد واحدة الشام فلسطين الأردن لبنان.. يمكن أن يغيب أسبوعاً وأكثر.

ويعترض صوت متلهف، احكي لنا، كيف مات جدي؟

كيف مات جدّنا؟

إنه الموت مهما كانت (كيف).. مصيبة الموت لاحقت الشابة الصغيرة الملأى تحفُّزاً وحباً للحياة مازالا باديَين عليها.. لاحقت الأم الصغيرة بذكائها الفطري وإرادتها وأنَفتها.. أصبحت في البلد ناراً على علم.. لم تعد إلى بيت أهلها، رفضت الخاطب بعد الخاطب.. بل أظهرت لفكرة الزواج اشمئزازاً واستهجاناً.. وحين تزوجت قريبة لنا

أرملةٌ شابة وكان عندها ولد، بكت جدتي، وقابلنا دموعها باستهجان وقدْر من الغيظ: إنه شرع الله، هذا أفضل لها ولابنها.

هزت جدتنا كتفيها ولوت شفتيها بأسف: كيف يأتي من قلبها أن تلفَّ (العريس) و وحيدُها في غرفة أخرى؟

اختارت جدتنا الوحدة.. تطوِّق طفلها بذراعيها الشابتين كلَّ ليلة وتنام.. وربما إذا غفا استيقظت، لتعبثَ بشعره وتتأمّلَ ملامحه، تتلمس كم يحمل من ملامح أبيه.. ربما تفجّرت في جوانحها نداءات الحياة، وصرخت.. لكنها تنجح في إخراس كل صوت وكلَّ اعتراض على إبقاء الصغير ـ وحدَه ـ محور الهمّ والسَّعي والحلم.. أليس هو كل شيء، كلُّ ما تبقّى من حياة مع زَين الرجال لم تدم أكثرَ من أعوام خمسة؟

الموت يلاحق جدتي: الأب الأولاد الزوج الأم..

كانت تمسك فجأة بكتفَي أحدنا، فيحاول التملّص بخشونة ولا يفهم قولها: لو سجدت على الرمل ما كافيتك يارب.

وقد تقبّل خدّاً أو رأساً على حين غِرة وتقول: أنت ابن ابني؟ ولم نستطع أن نفهم «كأن أحداً في الدنيا ليس له أحفاد غير جدتنا!»

الطفولة بسذاجتها، والمراهقة برفضها، والفتوة بعنفوانها..كلُّها لا تريد أن تفهم.

هكذا ولَّت أجمل السنوات دون أن ندري أنّها الأجمل.. لم نتذوّق أن

وجود الجدّة في حياتنا ظلٌّ حنون.. ودفء ناعم.. وقوة هادئة..

حين حملناها إلى دمشق، على كره منها، طلبت على وجل، أن تبقى في البلدة التي لم تعرف غيرها أكثرَ من نصف قرن.. وكان ذلك غيرَ منطقيّ لنا.. فما أهمية الحديقة والبيت والذكريات إذا كانت ستبقى وحدها.. إن مصالح كل أفراد الأسرة صارت في المدينة..

لعلَّ مواسم بكائها زادت مع كل ذكرى قريبة أو بعيدة.. تبكي من الجدران والجيران.. وتؤكدّ أن وجوهنا اصفرَّت، وهمَمنا تراجعت..

صحيح أن أبي حرص على أن يكون بيتنا واسعاً، وبسقف مرتفع.. ولكن من أين يأتيها بالإطلالة على الوادي والنهر.. و(المخاضة) و(عين سلطان) و (رأس النبع).. من أين يأتي بمساكب الباذنجان والبندورة والفليفلة والنعنع والبقدونس.. بأشجار الرّمان والمشمش والزيتون والتوت والتفاح.. بعشرات الأصناف من الزهور تشتعل جميعاً مطلعَ كلّ ربيع، بعد أن تُمَّدها جدتي بلمسة من يدها الخضراء التي لا تكلّ.. وأين (غزّالتها) الصغيرة التي تنكش بها التربة حول النبتة وتسوّيها..أو تفتح حولها ممرّاتٍ تمُدُّها بماء حين يكون يومُ سقاية الجنينة.

كنت أصحو مبكرة فلا أجدُها.. ومن نافذة المطبخ أراها وسط الحديقة أو أقصاها.. تعمل بهمّة.. أتخيل لونها النَّضر المورَّد.. وحركةَ فكّها الأسفل مع فمها كلما أرادت ردَّ غطاء رأسها الأبيض إلى ما تحت ذقنها.. فإذا لحقت بها حمَّلتني حاجيات السلطة، ربما مع الباذنجان..ثم تجلس تحت نافذة المطبخ المطلة على الجنينة.. لا

يحجبها عن جميل خلق الله سورٌ ولا يغطّيها سقف.. لتقطّع وتقليَ وتعصر .. تحت السماء.

كم من الساعات قضتها جدتي تعمل في الحديقة؟ وأين تقضي هذه الساعاتِ في المدينة..

جدّتي لا تقرأ، أمّية.. تحفظ بضع سور من القرآن تردّدُها في صلواتها، تسبّح كثيرا وتستغفر.. تصوم كثيراً وربما صامت أشهر (ستنا فاطمة) رجب وشعبان ورمضان.. يقولون هذا شيء فضيل.. ومامعنى بدعة يا ابني.. لعلها اقتنعت أخيرا (وربما لم) فلم تعد تصومها كلَّها.. تفطر وتصوم.. ثم خفّ ذلك مع أنظمة الحمية وضعف الشيخوخة.

تحمد ربها كثيرا وتدعو بما يحضرها.. لكنا جميعا حفظنا أدعيتها الأثيرة ورددناها بعد وفاتها: ياربّ من قامتي لحفرتي، أسألك حسن الختام والوفاة على الإيمان، لا تثقّل بي (أرض) ولا تُكَرّه بي (عبد)..

ولم تثقلِ الأرض بها.. ولم تثقل هي عليها.. لم يكن ثمة وقت.. غابت عن عالمنا أياماً ثلاثة.. نامت وصحت.. صارت إجاباتها تأتي من عالم آخر، فارقت الحياةُ ساقيها قبل أن تنقل إلى المستشفى، حيث أسلمت الروح بهدوء..

وفي غرفتها كان ثمة ملابسُ قليلة وسبحتان.. ورائحة طيبة غيرُ مألوفة تملأ فضاء الغرفة التي اعتزلت فيها حياتنا على كره.. فلم نفهم معنى أن تبقى وحيدة:

الله يرضى عليك.. أكلت عينيّ الوحدة.. تعالي اكتبي عندي.الله يرضى عليك.. تقبرني، ابقَ عندي، ادرس هنا.

كان ذلك في الشهور الأخيرة حين أصبح التنقل والمشي ثقيلين عليها.

وكم رأينا بعدُ في أحلامنا أنا نبكي ونكتشف أنها لم تمت، ونريد التكفير عن إهمالنا وغبائنا.

كل شيء يأتي متأخراً جداً.. حين جرّبنا الغربة بعد الثلاثين عرفنا معنى انتقال جدتي بعد السبعين إلى بلاد البترول.. لم نتوقف عند الأمر أبدا.. لقد اقتضته مصلحة الأسرة جميعاً!

ولم تمكِّنها صحتها من زيارة بلادنا بعد..

انقطعت جدتي عن جذورها.. فبدأت الشجرة القوية الصلبة تذوي.. وتفقد من رَوائها وبهجتها..

زكمت رائحة البترول كلّ الأنوف فلم تعد تميّز.. ابتلع بقايا صداقات قديمة كانت تربطها بأيام الزوج، ودفنت العجوز أحلامها البسيطة بزيارة ملاعب الصبا القصير الذي تحول فجأة إلى درب ترمُّل لا نهاية له... دفنت في الرمال الحارقة، التي لا تنتج إلا الملح والذهب بألوانه؛ عشقَها الهواء النقيّ والزهرة الندية والنبتة الطريَّة.. مشاهد الشروق والغروب في بلدتنا الأولى، أصوات الرياح تعصف بالأبواب والنوافذ فتكاد تقتلعها.. كساءً أبيضَ ناصعاً يغطي الطرقات يصنع صباحاتٍ تملؤنا جميعاً حبوراً ورضىً.. لعلها جاهدت أن تدفنَ كل ما يربطها بالوطن الذي أصبح بعيداً جدا.

لكن المشاعر تظلّ حية في قلب جدتنا،طازجة، يمكن استعادتها كل حين.. لسماع أغنية حنين، أورؤية مشهد فراق أو لقاء على التلفاز.. بل لأي خبر أو إشارة ترتبط ولو من بعيد بالتاريخ القريب البعيد!

حتى لو لبست إحدانا، وفينا أمي، الأسود أو الكحليّ، كانت تنشج: لا تلبسي هذا اللون.. برضاي عليك..

ـ كلّ ما كنتم تفعلون يا جدّتي خلافَ السنة.. حزن عمة أبي على أخيها مثلاً، طوال عمرها حزينة.. لا تتزيَّن، لا تضحك، ما ذنب زوجها؟

ـ تقبرني.. ما كان أخاً واحداً.. فقدت واحداً في (سفر برلك).. وواحداً لم يعد من أمريكا وسمعنا أنه مات.. وجدّك مات قبل الأربعين.. كلهم راحوا في عز الشباب..

وتدمع عيناها.. لكننا نضحك: هيه.. لنا عمّ في أمريكا.. ربما بعد عمر ظهرت له ثروة تجعلنا من الأثرياء..

ـ خلِّنا في عمة أبيك

ـ كنت تحبينها وتحبّك

ـ كثيرا.. الله يرحمها،كانت إذا رأتني في غطاء أبيض نظيف، تنزعه عن رأسي ثم تمسح به الجدار وتقول: تريدين أن يقولوا: امرأة أخي سعيدة! تلبس ملابس نظيفة.. أنت لا تعرفين الناس.

ـ هذا في بداية الأمر يا جدتي

ـ ربما

ـ وكلما رأوني حاملة أباك، مزّقوا طرف ثوبه

ـ لماذا؟

ـ حتى يعيش

وتتنهد مجدداً : كلّ شيء تغيرّ.. الحمد لله الحمد لله لو سجدت على الرمل ما كافأتك يا ربي

تحمد الله كثيرا .. كثيراً جداً، لأسباب واضحة، وأخرى غامضة على القلوب اليافعة التي يصعب كثيراً شدُّها إلى الوراء، وتدمع عيناها الكابيتان بسرعة.. وبخاصة بعد هجرتنا الأخيرة.. نغتاظ أحياناً ونتهمها بالمبالغة..

(تقبريني، تقبرني) دعاؤها المتكرر أن (نقبرها).. كل الأمهات والجدات عندنا يستخدمن هذا الاصطلاح في تعبير عارم عن المحبة.. أن يموت المحِب أولاً.. ألا يعانيَ فقد الحبيب، فهو لن يتحمل، ولقد عانت جدتنا كثيراً أن تدفن من أحبت.

ـ أفلحت مرة، وقلت أطبخ له الكبة اللبنية

ـ يوه.. ولم تجدي غيرها، إنها ثلاث طبخات.

ـ من الفجر بدأت.. ولما وضعتها أمامه جلست جانباً أرقبه..

ـ ألا تأكلين معه يا جدتي؟

ـ .. أستحي.. قد أجلس دون أن أمدَّ يدي.. كنا في ساحة الدار.. حاول أن يقسم حبة فوجد صعوبة، أتدرون ماذا فعل؟ لوّح بها في كفّه ثم قذفها إلى الجدار.. فلم تنفتح..

ـ هذا كثير..

ـ بل معه حق.. كانت يابسة كالحجر.

ـ وغضب، ولم يأكل طبعاً

وتضحك فيهتز جسدها كله.. وتمسح عينيها بالسبابة والوسطى كأنها تقول: لست أبكي

ـ الله يرحمه، كان نزِقاً، لا أستطيع الحديث معه..

ـ وكيف عشت معه هكذا؟

ـ أخته كانت الواسطة.. كل شيء أقوله لها.

وتقسم إحدى البنات أنها لا تعيش مع رجل كهذا ولو كان في حُسْنِ يوسف، وأخرى أرقّ شعوراً وعاطفة تسأل على استحياء :

ـ أظن أنه كان يحبك، مع ذلك..

تقلب جدتي شفتها السفلى، لعلها تداري ارتباكاً: المهم أن يكون راضياً..

ـ أنت فخورة به جداً.

لا تعلّق.. بل تنتقل إلى نقطة أكثرَ جذباً لجمهورها :

ـ لا إله إلا الله.. لا أنسى يوم ولادتي أباكم

ويتعالى أكثر من صوت: ماذا حدث؟

ـ حمله على يديه.. اقترب من الشباك.. وتأمّله، ثم عاد نحو فراشي بهدوء وقال: إنه لك، الله يخلّيه لك.

صرخت أخته: لا تقل هكذا، إنه ابنك وابنها..

مات بعد ستة أشهر.

ـ يا جدتي كيف مات؟

ـ إنها السكتة.. عاش بعدها ثلاثة أيام فقط..

ـ فقط.. كيف؟

هنا لا حاجة إلى مزيد من الأسئلة.. إن جدتي لن تكفَّ حتى تكملَ لنا الحكاية..كلَّ مرة تبدؤها من زاوية..كلَّ مرة لا بد أن يشوقَنا سماعُ النهاية التي نعرفها.. وتلك الـ(كيف) تظل عالقة بأذهان الصبايا أكثر، تلمس في قلوبهن الغضة وتراً مشدوداً تماماً.. وتراً قلقاً ومتعطشاً.

أحبَّها.. كلما عبث أحدنا بتجعدات كفّها أو ذراعها تقول بأسف أحياناً، بقدر من الغضب أحياناً: عندما كنت حلوة أين كنتم؟

و تتطاير من حولها ضحكاتٌ صبية لا تصدق: جدتنا كانت جميلة!

لم ندرك لون شعرها الأصلي.. ربما رأيناه ونسيناه.. لكننا نعي تماماً كيف كانت تصبغه، وقد نساعدها في هذه المَهَمَّة التي تغدو

شاقة عليها عاماً إثر عام.. فتتأخر حتى يعمَّه بياض فضي يتناثر ناعماً تحت القمطة التي تلفّ بها رأسها غالب الأحيان.

ما من شك.. كانت ذكية ومحبوبة بين المعارف والأصحاب لحضورها المؤنس وبراعتها في الحديث وقدرتها على فتح القلوب.

ويردّد بعضنا بين مزاح وجِدّ: بلى.. بلى كان يحبك.. يلبّي طلباتِك، مثل عنقود العنب.

ويقاطع صوت: ما قصة عنقود العنب، فنجيب: اسأل جدتك..

ولا حاجة لسؤال.. إنها الذكرى التي ما تزال تختلج في قلب غضّ كما كان في ذلك اليوم الموغل في البعد.. يوم عاد جدّنا الهُمام من إحدى سفَراته:

ـ سمعت صوت حصانه أمام الباب.. خرجت خائفة، فرأيته ممدَّداً على الأرض وقدمُه عالقة بالركاب.

ـ وعنقود العنب..

لا تسمع..

ـ حين أدخلناه.. أنا والجيران، ووضعناه على فراش في وسط الغرفة.. صحا قليلاً ونظر تجاهي.. فاقتربت منه.. أشار بيده إلى جيب سترته..

وجدت عنقود عنب أسود، ملفوفاً بعناية.. تذكرت أني، طلبت منه

عنباً أسود، بعد أن استحلفني بالله قبل سفره أن أطلب شيئاً، عاش بعدها ثلاثة أيام.

ربما يستطيع أكبرنا أن يتخيّلَ الغرفة المرتفعة عن عتبتها، بسقفها ذي العوارض الخشبية الأسطوانية، بنظافتها المشعّة ونوافذها ذات العمق تغطيها ستائرُ بيضٌ مُنشّاة، ربما يستطيع أن يضيف إلى الصورة رجلاً وسيماً قويَّ التكوين ممدّداً على الأرض، تختلس إليه النظر من خلال دموعها شابةٌ ممتلئة نضرة.. تظنّ أن دقاتِ قلبها ستتوقف مع دقات قلبه.

وربما لا يتاح للخيال فرصةٌ كهذه بسبب سؤال بسيط يقذف به أصغرنا: وهل أكلت العنب يا جدتي؟

النَذر

فكّا المقصّ يقتربان من الشعر المنذور للأمل والانتظار، والمخالبُ التي بلون النبيذ تقترب لتُطبِقَ على الضفيرة الجميلة التي استلقت في ثوانٍ أمام المرايا والفراشيّ والأمشاط واللفافات.. انعكست صورتها على كل الجدرانِ المحيطة بنا، وتابعت الأعجمية عملها: مدام.. ستكون رائعةً بالشعر القصير..

أفهمها رغم الخليط المحزن من الإنجليزية والعربية..

ربما سرت قشعريرة من قمة رأسي إلى باطن قدميَّ المتثلجتين، عابرةً كل خلاياي، وأنا أتابع صورة ابنتي في الجدار المرآة.. ربما انهارت القلعة الزجاجية التي كانت تحتضن قلبي، بعد أن تشعَّبت كسورها وتشعّبت، لتصبحَ أنقاضاً يتسلل الدم من خلالها دافئاً متلذِّذاً، بعد أن عمل عمراً مع القلب الأمين المنتفضِ دوماً.

إنها كما هي، رقيقةٌ أكثرَ مما أحتمل، أنيقةُ الملامح، ترتجف شفتاها الرقيقتان لدى أبسطِ سبب، وكانتا لا تكادان تَبينان قبل أن يفقدَ الخدان امتلاء الطفولة المحبَّب، يبدو لي محيّاها الجانبيُّ أجملَ وأكثرَ كبرياء، التفتت إليَّ وقد انكشف ظهرها النحيل الذي خلا فجأة من الشعر العزيز: أنت قلت إنه يناسبني.. تذكَّري.

استرجعتُ حواراتِنا الحزينةَ التي تمتدُّ سنواتٍ:

ـ بعد عودته بيوم واحد سأقصُّه. وتهدِّد بسبّابتها الطفلة: لقد تركتُه من أجله..

ـ هذه مكابرة، شعرك جميل، ولا أحد يؤيِّدك في قصّه، سيكون شيئاً يوجع القلبَ.

ـ لكني أتمنى أن أغيّر، أكثر البنات شعرُهن قصير.

أكثر البنات شعرهن قصير، لكن ابنتي تنتظر أن يعودَ أبوها من السجن ليرى شعرها طويلاً.

قلت لها مراراً أن أباها يحبّ الشعر الطويل، فلنُطِلْ شعرك من أجله.

تحوّل الرأس الصغير إلى نذر غيرِ مقصود استمرَّ أربعةَ عشرَ عاماً، وكلما كبِرتِ البنيّةُ يكتسب الحوار عمقاً: ينبغي أن يعرفَ أنا كنا نفكرُ فيه طوالَ غيابِه.. اتركي شعرك طويلاً.

ولما تطايرت أنباء عن عفو عن السجناء المسمَّين سياسيّين، صدّقنا كما لم نصدقْ شائعة قبل.. زلزلتِ الأخبار ركود حياتِنا وأنهكت دماءنا وأبكت ضرباتِ قلوبِنا. أحيتِ الأرق واللهفة والحلم..

ثم تطامنتِ الأخبار..

سكنت كعاصفة محمَّلة ببرق خُلَّب، وتطايرت أنباء أحدثُ وأهدأ: ليس عفواً عاماً..

قارنّا أحواله بمن خرجوا فقلنا سيعود..

لِيعُدْ كهلاً حزيناً محمَّلاً بعذابات الجسد وطمأنينة الروح، ليعد.. فنحن بانتظاره ونريد أن يرى كم طال شعر الابنة، وأن يقرأ أوراقنا المنتظرة، وأن يسمع أخبارنا القديمة.

لكنه لم يعدْ..

بكت ابنتي وصمتت.. وناقشت وصمتت، شحَبت واغبرّ لونها، ثم أعلنت أنها ستقصّ شعرها، وأنها حرة تفعل برأسها ما تشاء.

تسللتُ إلى غرفتها قبيل الفجر، كانت تعانق مع صورة أبيها، ضفيرتَها، وتغطّ في نوم رائق..

تذكرتُ كيف أنها خلال زيارتِنا الوحيدة له، التي أُذن لنا بها بعد أربع عشرة سنة من سجنه، والتي دامت ربع ساعة .. قالت بمرح وهي تشير إلى رأسها المغطّى: ماما قالت أنك تحب الشعر الطويل، وأنا أطيله من أجلك..

أجابها وهو يتأمَّل ابنة العامين التي كان لها خدان سمينان يخفيان شفتيها، والتي تركها تنتظر عودته في الشرفة الصغيرة المطلة على طريق إيابه.. أجابها بصوت خفيض مُستَكين لا يمَتّ إلى عالمنا بصلة: يا حبيبتي!

عودة القافلة

سارت القافلة جَذلى، يريد سكون الليل ونجومه الشاحبة أن يذكّرها بما تحمله من أحزان في الهوادج وعلى ظهور النوق، لكنها تستنشق الهواء النقيّ وتسعد قليلاً لأن الصباح قادم..

لقد ودّعت، أو كادت، في محطة قريبة أسباب الحزن والغمّ، وانطلقت بحمولة خليط من الصبر والبهجة العابرة والألم الحالم والدموع التي لا تخطئ سبُلها.

كان قد مضى وقت قصير على تخليص الأرض من الآفات، والجميع يظنّ الآن أن المحصول القادم سيكون أخضرَ مرتعشاً في حبور، تطربه لمسات المحبين فيستسلمُ لحالة القطاف.

كل الناس يرَون أنهم تعبوا جداً.. ويظنّون أن الأرض نقية جداً، إلى حدّ ألاّ تبخلَ أيةُ ذرّةِ تراب بالعطاء، وإلى حدّ أن تسامحَهم حتى لو قصّروا، مادامت أضحت حُبلى ببذورهم القوية، مادامت تجد في باطنها خيراً كثيراً ستُمِدُّ به أجنَّتها التي لا تبكي عندما ترى النور، وهاهم في طريقهم ليجلبوا لتلك الأرض مزيداً من أسباب الخير.

كانت الأفعى في وَكر قريب، تنتقّل بخفة دون أن يراها أحد. تتشمَّم الأرض الطاهرة، تمدّ لسانها المشطور وكأنها تلعق الهواء النظيف

الحزين، تلتمع عيناها في العتمة، يتعبها زَهوُها بثوبها المرقَّش، لكنها لم تبُح لأحد بأنها أفعى، فظنَّ الجميع وهم يقلبون الأرض ويجمعون الطفيليّات، وهم يُهيلون التراب فوق المساحات المدمّاة ببذل الشهداء.. ظنّ الجميع أنها حبالُ الزينة التي قطفها الأطفال الفرحون بالخلاص.

لا أحد يدري ماذا يحدث غداً، لكن الآفاق بدأت تنبلِج عنها العتمة، وتبدّت ألوان الصباح التي تخطف الأنفاس أكثرَ ألقاً وصدقاً، توقفتِ القافلة تتأمّلُها وقررت أن ترتاحَ في النهار بعد أن سارت ليلاً بطوله.. وبعد أن انتحبت عمراً بطوله، لقد أصبح المقصود قريباً، ولا بأس في قدْر من الراحة.. لقد أصبح كلّ شيء على ما يرام، سينسى الناس أحزانهم: الجميلةُ ستسلو الحبيب، والأم ستعتاد غياب الولد، الزوج سيقوى على فِقدان الزوجة، طالما أن ذلك حدث ولايمكن إصلاحُ ما حدث.. لكن إصلاح القادم ممكن والأفقُ جميل والحياة تعِدُ بالاستمرار، لا نستطيعُ صمَّ الآذان عن وعودها، أنغام الوعد شجية ومهدهدة، حتى الجراحُ تغدو أقلَّ إحراقاً، الذراع المفقودة قد يعوِّضها العلم.. والعين والعينان.. ألا يمكن أن نبصرَ بالأذنين ونسمعَ بالعينين؟ ألا يمكن أن نمشيَ على ذراعين ونكتبَ بأصابع القدمين، يمكن أن نضغط بالكفّ على موضع القلب ثم الكبد.. فيهدأ وينتظر.. ويحلمَ أثناء الانتظار.

برزت الشمس محذِّرةً بأشعة شُواظٍ من نار، تدثَّرتِ الأفعى بالتراب، وانسلّت بين المخيّمين الغارقين في نوم آمل، يبهجُه التعب المتغلغل في الخلايا، وتجمّله لذة مسّ الأرض بعد فراق.

انسلّت الأفعى ونفثت سُمَّها: في كل إناء قطرة واحدة..

«من أسف أن الآنية كانت مكشوفة»

شربوا ولم يقتلْهمُ السمّ.. لكنهم لما استأنفوا المسير تثاقلوا واكتشفوا أن الطريق طويلة مضجرة، وأنه تحسُن العودة قبل صباح آخر.. أحسّوا أن آلامهم تتمدّد وأن جراحاتِهم تتنزّى من جديد.. وجدوا ألا شيءَ يستحقُّ المزيد من المغامرة، وأنه ليس في الإمكان أبدعُ مما كان.

بزغت في حصن الحبّ ثَغرة، فتسلل التعبُ وحارب الصبرَ.. ولم يعودوا يطيقون ما أطاقوه طوال مسيرة الليلة السابقة، حين ظنّوا أن قطف الأقمار من أجل الليالي، لن يحتاجَ أكثرَ من مسيرة بضع ليال.

لوَّوا أعناق الجمال الصِّيدِ في طريق عودة، في غمّ وصمت أدهش النهار الذي راقب في الليل الجذلَ والفرحَ في عيون الشيخ والطفل، ولم تدرِ الهوادج بالذي كان.. إلا بعدَ فواتِ الأوان.

عَرض في حَزيران

لا لا تقترب مني، سأكون عند أحسن وأفضل ظنّك، لا أحتاجُ من بصطارك ركلة ولا من سوطك صعقة ولا من لسانك البذيء شتيمة لأمي ولا لأختي، حتى إنك لن تحتاجَ إلى صفعي كيفما اتّفق مهما اقتربتَ منيّ وحاولت اختراع تهمة لي، أنا السجين المهذّب المؤدب الهادئ المنضبط عفيف اللسان الذي عرفتموه تسعةَ عشرَ عاماً، لتمطرْ قبرَك رحماتُ ربي يا أمي على ما عوّدتِني.. والحمد لله لك يا ربّ ألف حمد أنك قبضتها إليك قبل أن ترى آخر عنقودها أو تسمعَ عنه في سجن تدمر.. اسمع أيها المتخلّفُ المسكين الحقير المدمن الذي اختار العبودية في هذا السجن.. لن أتيحَ لك فرصة أبداً أن تعكّر ما يغمرني من تفاؤل بأنها ستكون آخر العرَضات أو العروض أمام الضباط الكبار.. عصبت عينيَّ كما أمرت.. خرجت أتلمَّس الجدار كما أمرت، وجّهت وجهي نحوه جالساً بناءً على صيحتك وتفهُّماً لشتيمتك.. لن أتنفَّسَ لن أتكلم لن أطلب ماء ولا طعاماً مهما طال انتظار دوري. لن أتلفّتَ لن أحاولَ أن أحادثَ جاراً (يمكن أن نجازف بهمستين حالَ ابتعادِك) ولا عائداً من العرض، فالساعات القادمات ستبدي لي كلَّ ما أجهلُه الآن، اصرخ (ولك) حتى المساء، تجوّل حولنا مع رفاقك لترصدوا حركاتي وسكناتي فلن أمكّنَك مني.. سأصل

العرض بكامل الهدوء والياقة، سأبتسم.. سأعترف بأني منظَّم، الإنكار كلّفني ستَّ سنوات أخرى بعد العرض السابق، لم أتعمّده غير أنه ما تواصَينا به بعد أن رمى إلينا من سبقونا بضع كلمات وهم يلمّون أغراضهم إلى مهاجعَ أخرى، قلنا يا شباب يبدو أنها محاكمةٌ فما رأيكم، قالوا والله نحن نُضرب بسبب ودون سبب.. سواء كنا منظَّمين أم لا فالكرباج طالع نازل، لا تعترفوا حتى تُضربوا بسبب.. ضحكنا وقد اعتاد الدمع حبسه، هل كان فخّاً.. آه من ذلك، كان قد مضى عليّ خمسَ عشرةَ سنةً يوم ذلك العرض، قلنا لعلها تكفيهم.. أخطأنا.. اليوم سأقول إني منظم كما تقول الإضبارة التي جمعتموها حتى من المدارس التي تعلّمت فيها، لعلهم كلهم قالوا لكم أني كنت فتىً متديّناً، نعم طولَ عمري أنا متديّن..أصلّي وأصوم وأغضّ بصري ولا أشتري المجلاتِ الماجنةَ ولا أدخل السينما ولا أدخّن.. وحين تنظّمت لم أحمل سلاحاً وهم يعرفون.. لعل الإنكار طوال هذا العمر حماني من حكم بالإعدام.. وعلى هذا فأنا محظوظ جدا.. ولا أنكر أني محظوظ.. كم مرّةً نسيَني العسكري بعد أن علّمني في الليل، وكم مرّةً يسر الله ليَ الدواء عند الحاجة إليه، نقلوني إلى مهجع السل فتبيّن أني غير مسلول.. أسناني الأمامية سليمة ويَغبِطُني الشباب عليها.. أنا بخير كثير قياساً إلى الشباب والكهول الذي مرّوا بي ومررت بهم..

لا لا.. كنت أحاول فقط أن أرفعَ ياقة قميصي.. عنقي يحترق يا مجرم، لو تركتم شعري ينمو قليلاً.. آخ.. كانت ركلةً قوية يا.. كلب! لكن لا بأس، نوع من التسلية، فالانتظار فظيع والدومينو الذي نمثّله

من أبواب المهاجع الحديدية السود نرسم به حدود الجدرانِ عبرَ الساحات الداخلية وحتى غرفةِ الضباط الكبار؛ يتحرّك ببطء وصمت وحزن.. يصعب أن يكون الصمت فرحاً، الصمت كلام كثير وصعب..

لما فُتحت الشرّاقةُ هذا الصباحَ ووصلتنا ثوانيَ بهواء السماء، أعجبَنا الصوتُ القبيح والكلام القبيح:

ـ ولك اللي بيسمع اسمه يطلع برا..

ـ عرض..عرض يا شباب (حلوة كلمة شباب).. الرئيس الجديد يريد تبييض وجهه مع الشعب.

وهل الشعب لازال يذكرنا؟ هل يهمُّه خرجنا أم بقِينا.. أليس هنالك هموم أخرى يفكّر فيها.

آخ.. الشمس كأنها تريد أن تثقبَ رأسي لتفجّرَ سوائل دماغي الرجراجة وتفضحَ ما أفكّر فيه.

متى كنتَ بهذه القسوة يا حَزيرانَ سورية.. أما كنت أخفَّ وطأة.. أم هي الحرية ودمشق جعلتك أجمل.. ولم لا يموت الرئيس إلا في حَزيران؟ لم لم يمت في شهره الأثيرِ الذي انتزع فيه الحكم بالقوة.. شهرِ تشرينَ الجميلِ شهرِ العنب والتين واجتهاد التلامذة، أستغفر الله العظيم.. والله أنا رجل مؤمن راضٍ بقضاء الله.. ومهما طال هذا الوقوف لا بدَّ أن يمضي، لكني أستعجله، أكاد أتمنّى أن يصلَ دوري مهما تكن النتيجة، كيف يكون يومُ العرض الأكبر يومَ تدنو الشمس من

رؤوس الخلائق، ويغرق كل منّا في عرقه بحسب عمله، ويستعجل ساعة الحساب على ما هو فيه. اللهم اكتبني فيمن تظلُّهم بظلّك يوم لا ظلَّ إلا ظلُّك.

لكن الانتظار طال.لا يموت العطشان قبل ثلاثة أيام ولكن ماذا يفعل الحاقن.. لا ليس الآن.. لازال الوقت مبكراً. هاهو جاري يتململ فهو بحاجة إلى قضاء حاجته، اصبر يا صاحبي ما استطعت فقد لا يسمحون، حاذر أن تقف في العرض بملابسَ مبللة.. يصيح غيرَ آبهٍ بالنتائج: لك الله يخلّيك أنا مريض.

أعرف هذه الحيطانَ لا أحتاجُ إلى النظر إليها. أحفظها بقعة بقعة وتحفظني. لأنها تحمل من دموعنا وعرقنا ومخاطنا وقيئنا وربما نثاراتٍ من جلودنا المتفجّرة تحت السياط التي تظنُّها أحياناً أسلاكاً مسنونة لا تنزلُ إلا لتشقَّ وتفجّرَ الدماء.. الجدرانُ الصديقة التي قد تمتصّ اصطدام جثة أحدنا بها بين سوطين رفستين صفعتين، غدت خرائطَ من طلاء حائل وسخام متراكم وآثارِ رطوبات بشرية قد تخبر عنا يوماً .. رأيناها بعدد أيام التنفس والاستحمام والحلاقة والتفتيش والعقوبات المنهَجة ليلاً ونهاراً.. وكلُّها أيامُ دم.. كلها أيام دمع تذرفه القلوب وقد ألف الدمع أنه حبيس.

كثروا.. والعسكريّ مضطرّ للسماح لهم بالتبول، قم ولك أنت وهو يا أبناء القحـ.. وجاري ينضمّ إليهم. ولك كذّاب أنت وهو ماعاد تستطيعون التحمّل هيا سأعدّ للعشرة وتكونون برّا.

يبدو أني أقترب من الممرّ المسقوف الواصل بين الساحات وبين غرفة العرض، أعرف أنها الغرفة التي رأيت فيها أسرتي للمرة الأولى قبل سنتين.

خلاص خلاص.. لا فائدة.. ليكن خلاصاً.. فات أوان التساؤلات واللوم ومحاولة الفهم..لا لا تفكرْ بهذه الطريقة، فكرتُ وانتهى الأمر دفعْنا ثمن كل الأخطاء والخلافات وتقلباتِ الأمزجة والآراء والأنانيات والحماقات وربما الاختراقات.. لماذا (ربما).. من الذي يضحك يبكي.. لست أنا.. لست أنا.. أنا أنتظر دوري تحت سقفٍ الآن.. انتهينا من ساعات لذع الشمس، والدقائقُ القادمة مصيريّة، أريد أن ترجَحَ كِفّة حسناتي هذه المرة..اكتفيت من تدمر. أريد أن أعبرَ هذا البرزخ إلى الحرية ولو على أعتاب الخمسين.. هه لازلت أذكر هذه العبارات الجاهزة..

حطّ الطمّيشة عالأرض حاضر.. هاهم حكامُنا حكماؤنا الكبار، من هم ما هم كيف حدث أن أصبحتُ مِلكاً لهم: حياتي موتي حريّتي مشاعري كلماتي دمي دموعي جلدي شعري عظامي معدتي مثانتي أمعائي الدقيقة والغليظة وحتى.. بعد تسعةَ عشر عاماً ألا تتساوى الأشياء.. بعد تسعةَ عشرَ عاماً ما الذي تستطيع التنازل عنه مقابلَ الحرية.. ما الذي ستسمح لهم باستغلاله فيك لكي يمنّوا على جسدك بالحرية ما تبقّى من الكهولة والشيخوخة..وما أدراك أنك لن تحملَ سجنك معك.

هاهم. رجال بشعر على الوجوه والرؤوس بخصىً وهرموناتِ ذكورة لا شك أنهم يعرفون كيف يستمتعون بها، أنا رجل أيضاً بالمواصفات نفسِها، الفارق الأساسيُّ بيننا لا يكمُن في النسُج ولا الأعضاء ولا فيما بين الفخذين.. أرادوا محق رجولتي.. أرادوا سحق إنسانيتي.. مثانتي تتململ. إنه محو للإنسانية.. الإنسانيةُ هي العدو فينا، تحويلُنا إلى نسخ شوهاءَ راضخةٍ مذعورة هو المقصود.. المقصود أن ننمسخَ ننمحيَ نتحولَ إلى كتل لحمية أكبرُ همها ألا تتألمَ بتعذيب خارجي أو داخلي حين لا تستطيع التأقلم مع الحدّ الأدنى من مقوّمات العيش المتاحة.. لازلت أحملُ صورة رجل، فهل تُراني أخفي وراء هذا الهيكل أيةَ بقايا من إنسانيّتي أو كرامتي.. كيف أتحقّق وأنا أعيش هذه الحياةَ الحقيرة المسخ، جدرانٌ قبيحة وساحات قبيحة ووجوه قبيحة وكلمات قبيحة وآلام قبيحة وحاجات قبيحة لا يمكن قضاؤها إلا بمهانة.

هاهم أولاء الذين ماعلموا لك من إله غيرَهم.. القادرون القاهرون الجبّارون المنتقمون المعطون المانعون.. هاهم اليوم يدعونك إلى العرض لا تخفى منك خافية.. أستغفر الله العظيم..اللهم أعنّي وألهمني رشدي رضيت بك رباً وبالإسلام دينا.. اللهم ربَّ السمواتِ السبع وما أظلّت وربّ الأرضينَ السبعِ وما أقلّت وربّ الشياطين وما أضلّت كن لي جاراً من شرّ هؤلاء الظالمين من أن يفرُط عليّ أحدٌ منهم أو أن يبغي، عزَّ جارك وجلّ ثناؤك.

كانوا سواعدَ يمنى ويسرى.. ولعلهم تحوّلوا إلى رؤوس.. تحدث في

وطني طفَرات عجيبة لا أقبل بأي تفسير لها.. معك حق ليس وقته.. تستطيع أن تمنعَ لسانك لا تستطيع أن تمنع أفكارك.. حلو.. لكنك أُدِّبت تسعةَ عشرَ عاماً على أفكار.. هل يعرفون أنها لم تتغيرّ إلى ما يريدون..

انتبه يا رجل هذا أكبرهم أبشعهم قلباً على رأس المكتب.. إلى يمينه اثنان أعرفهما وعن يساره مدير السجن وثالث لا أعرفه يشكلون قوس دائرة قبالتي.

يضع قلمه بتؤدة أمامه، ينظر إليَّ بهدوء. يالله اللهم إني أجعلك في نحورهم وأعوذ بك من شرورهم. يقول بصوت يتصنّع المرح:

ـ شو يا محمد هات احكيلنا عن الإخوان.. أعطنا لمحة سريعة عنهم

لعلي أعرف الإخوان خيراً منهم، ليست ثقافتهم عنا أخطاء كلُّها.

ـ مجرمون قتلة سيدي..

يمصمص الضابط الكبير شفتيه بأسف:

ـ شو مجرمون قتلة.. هؤلاء كفّار خربوا الاقتصاد والوطن

يطول أمد موت الكرامة.. يطول كثيراً.. كلما ظننتَها لفظت أنفاسها يفاجئك انبعاثها كأموات الأساطير، يرعبك أنها لازالت حية، فموتها قد يسهِّل حياة الأجساد قليلاً. لكن قد يَخزِك في أعماقك فرحٌ بأنها لا تموت.. لعلها ذاتُ خلودٍ قاسٍ يضرب حولك حصاراً

تحتاجه، حتى لا تتساوى مع حيوان، حتى لا يتساوى لديك الموت والحياة وأنت مؤمن، حتى لا تفرِّط بحياتك وأنت مؤمن: اللهم أحيِني مادامت الحياة خيراً لي وأمِتني ما كان الموت خيراً لي.

ـ سيّدي مجرمون قتلة خربوا الاقتصاد والوطن

ـ هدول كفار قلتلك، بدنا نطالعك عالتلفزيون لتقول إنهم كفرة..

هل توقعتَ هذا أيها الذكيّ؟ هل يفعلونها؟ من أنا حتى يضعوني في هذا الموقف؟ أهو مجرّد لعب بالأعصاب.. سخريةٌ من ضعفي وانعدام حيلتي أمامهم. لا أستطيعُ المجازفة.. بعد تسعَ عشرةَ سنةً ما الفرق؟ يعني أنكرتَ وكابرت حتى شاب شعرك بشهادة الشباب وما تحمله شفرة الحلاقة.

ـ سيدي أنا تخصُّصي العلوم الطبيعية، اسألني في العلوم أجبْك.. أما معلوماتي الشرعية فمتواضعة..

يتصايحون في استهجان، أصواتٌ تبرطم وتعوي حولي، عريضة شبعانة ريّانة يجدّدها التجشؤ وابتلاع الريق في تجاويفَ فمَوية نشَّفها التدخين: كيف؟ كيف.. هؤلاء كفار! مدير السجن الذي يظنّ أن لكلامه قيمةً يجدّد الإنكار: أليسوا كفرة، الذي لا أعرفُه يسألني: ألم يظلموك ويظلموا زوجتك وأولادك؟

ـ أكيد سيّدي ظلموني وظلموا زوجتي وأولادي.

سيدي سيدي.. أتذكر كم كانت كلمةً كريهة مُهينة لك في أيامك الأولى؟

لم أتوقّع أن ردّي سيُحدِث كلّ هذه الجلبة، يمنحونني نشوة لم أحلَم بها، كأني أُكافَأ، كأني أستردّ منهم شيئاً.

يسكتهم الكبير بحزم: اسمعوا اسكتوا..

ـ شو يامحمد مو كفّار؟

ـ سيدي قلت لك مجرمون قتلة خربوا الاقتصاد والوطن..

أفهم حركة رأسه تماماً وهو ينظر إلى العسكريّ المستعدّ ورائي.. أنحني لألتقط طمّاشتي على باب الغرفة فيفاجئني بركلة على الخاصرة وأخرى على مؤخّرتي.. كم أنا بحاجة لتفريغ مثانتي.. يدفعني يجرجرني يرميني أمام جدار لأنتظر المزيد من المعروضين.. إذا تجاوز عددنا عشرة يعيدنا إلى مهاجعنا.. يوصي رفاقه بي فأتلقّى من سياطهم وأرجلهم كلَّ ما فاتني خلالَ ساعاتِ الانتظار التي سبقت العرض...

لدى دخولي المهجع بعد تسعِ ساعات أتصامَم لأكثرَ من سبب، ومن قال إن سمعي لازال سليماً تماماً؟ أقضي حاجتي بكل امتنان.. أغسل رأسي برفق وأتحسّس بشيء من العطف بضع فقاعات كأن الشمس نفثت فيها من لهيبها: لم أستطع حمايتك..

حوارات كثيرة متناقضة تطنّ حولي وتئزّ وتضجّ وتدوّي..أفهم بعض الانهيار والاستسلام. يحزنني، بعضَ اللهفة بعض الضعف بعض التحدّي.. الكثيرَ من الأمل بأن الإفراجات ستكون كثيرة. يصل بعدي إبراهيم طبيب الأسنان: عسى خيراً.

أناوله قصّاصة الأظافر وأقول له بصوت لا أعرفه: خذ الله يرضى عليك اقلع لي هذين الضرسين، يؤلمانني من مدة، أخشى أن تخرجَ ولم يعد لديَّ غيرك.

ضحكنا بقوة من الحلوق. دمعت عيناه واستجابت عيناي.

سوزي تكتب وصيّتها

أطلق الصباح عصافيره السعيدة فانطلقت بأغنيات جديدة تذكّر الإنسان أن الكون بديع، وبسط الصباح رداءه على التربة والعشب والشجر والثمر، فاختفى الظلام الذي كان يحجب عنا منظر العطاء الجميل.

وقفت سوزي أمام المرآة.. أحكمت الغطاء المكوَّن من قطعتين على رأسها، غطّت شعرها تماماً.. حملت كتب المدرسة ودفاترها، ركبت سيارتها، وانطلقت بجذل وحبور لا تعرف غيرهما، اخترقت شوارع المدينة الهادئة التي تشقّ غابة من الصنوبر والسنديان.. ألقت نظرة على النهر تحت الجسر ككل يوم في طريقها نحو المدرسة المقامة بين الأشجار، أوقفت سيارتها في الموقف المخصص للمعلمات والمعلمين.. انطلقت بخفّة ابنة العشرين ليستقبلَها الصغار بتهليل ومرح: سيستر سوزي..

داعبتهم.. انضمّت إليهم، تحركت وكأنها لا تلمس الأرض، نشرت، كدأبها كلَّ يوم، أريج بهجة وسعادة شهد بها كلُّ من عرفها.

كانت تدرّس موادّ الصف الأول كلَّها مع اللغة العربية، لأنها قضت بضع سنوات في السعودية ردَّتها إلى لغتها الأم، فأتقنتها نطقاً وفهماً أكثر من غيرها من لِداتها العرب الذين نشؤوا في أمريكا، ولايزورون بلادهم إلا نادراً.

نقّلت بصرها في عيون الصغار، ستفتقدهم.. لقد اتفقت مع الإدارة على الغياب فترةَ الامتحانات الجامعية.. يعتبرونها فتاة نشيطة وماهرة، تدرس وتدرّس وتشترك في كل النشاطات التي تقيمها الجالية المسلمة في هذه المدينة من فلوريدا، يحبّها الصغار والآباء والأمهات.. يسعدهم نشاطها وهمتها العالية ونجاحها في عملها.. زميلاتها يحببنها ويعطفن عليها كأخت أو ابنة، فكلُّهن زوجات أو أمهات يعملن في المدرسة التي أنشأها المسلمون، واستطاعت الوصول إلى حالة من الاستقرار وجودة الأداء بعد أربع سنوات من العمل الشاق الذي تلا التأسيس.

كانت سوزي منذ طفولتها لا تنقطع عن دروس الأحد في العربية والقرآن الكريم، وهاهي الآن معلّمة متحمِّسة لتعليم أبناء العرب والمسلمين.

اليوم ستوزّع جوائز على الذين فازوا في مسابقة القراءة، رافق توزيعَ الجوائز صيحاتُ فرح وسرور.. خرجت سوزي من الصف وأطلت على صف أختها ميساء وقالت مازحة: لن ترَيني بعد اليوم.

استقلَّت سيارتها وانطلقت، إن من عادتها ألاّ تخلعَ حجابها قبل الوصول إلى البيت كما تفعل غيرها من المعلمات اللواتي ألزمهن نظام المدرسة بالحجاب.. كما أنها تضعه من البيت لا أمام باب المدرسة.

هنا إشارة (قف)!

القانون يقضي أن تتوقَّف توقفاً تاماً.. لكنها لا تريد أن تفعل، يجب أن تسرع، ستمرّ على البيت ثم تتوجّه إلى الجامعة.

والداها عادا للإقامة في السعودية، أخوها في الجامعة، لا تحبّ المكوث في البيت وحدها، ستنطلق فوراً إلى الجامعة.

سوزي مسرعة ولا تريد ولا تستطيع التوقف، وشاحنة ضخمة تقبل عن يمينها، وجدت نفسها تتمتم: لا إله إلا الله.. يا لطيف يا الله.. إني لأسأل عن الموت وعذاب القبر ويوم القيامة منذ أسبوعين، لماذا؟ لست أدري..

شريط حياتها القصيرة مرّ بسرعة مذهلة أمام ناظريها: أمريكا، فلسطين، القدس، السعودية، أمريكا، المسجد، المسلمون، عذاب القبر، أهوال القيامة، الحجاب.. تأخرت تأخرت.. إني أحبه.. لا أعترض على فرضه عليّ في المدرسة.. ظننت أني صغيرة..والأيام قادمة وسألتزم الحجاب، لكنّي كتبت وصيتي..الحمد لله كتبتها، فهذه هي السُّنّة كما قال الشيخ (أسلم) قبل أسبوعين، لقد أرشدني إلى كثير من أحكام الدين التي تشغَلني..

لم يكن ثمة وقت لأيّ منهما..الشاحنة تجرف سيارتها لصغيرة، تقذفها وتتجاوزها، تستقرّ السيارة، بعد ما يشبه التحليق، على جنبها فوق مساحة خضراء تساير الشارع.

كان منظر السيارة مريعاً، مفزعاً.. توقف بعضهم، وصلت الشرطة.. مرت ميساء مرَّتين ذهاباً وإياباً فقد خرجت لشأن

مدرسيّ.. لم تتعرفِ السيارةَ ولم تُعنَ بذلك، قالت لنفسها مسكين صاحب هذه السيارة لا بد أنه مات.

ومرت ساجدة إحدى الصديقات.. فاستغربت تجمّع الناس غيرَ المألوف، وأفزعها ذلك التفاوتُ بين حجمَي السيارتين المتصادمتين.

وصل الخبر إلى المدرسة وبيوت المسلمين ومسجدَيهم في المدينة، وقع كصاعقة مرعبة مذهلة: سوزي؟سوزان؟

غسّلت سوزي نهى المصريةُ ذاتُ الحجاب السابغ وخديجة الأمريكية الأفريقية.

أدهش المسلمين عددُ مشيّعي جنازتها، إنه اليوم يقارب الأربعَمئة شخص.. ولم يكن يجاوز في الغالب عشرة أشخاص، كيف علموا، كيف اجتمعوا؟ لا جواب محدّد.

دُفنت سوزي في مقبرة اشتراها المسلمون منذ أعوام قليلة، وصل أبواها بعد الدفن، وجدا في وصّيتها أنها تتمنى أن تدفن عند المسجد الأقصى، بكتها مديرة المدرسة والمعلمات والطالبات والآباء والأمهات والأطفال.. كلهم قالوا: كأنها كانت تتوقع، لقد كثر حديثها عن الموت في الفترة الأخيرة، وقالت أنها لا تخافه فهي تتوقع هناك حياة أجمل.. المديرة الشابة قالت: جاءتني سوزي من مدّة وقالت: لا تظنّي أبداً أني متضايقة من الحجاب، أنا أحبه.. وأرجو أن ألتزم به يوماً.

دفنت سوزي المسلمة الفلسطينية الأمريكية في أمريكا، تحت الظلال التي تحبّ الجميع.

كانت تتمنّى أن تدفن في القدس التي أحبّتها كثيراً.. كما قالت لعائلتها بعد آخر زيارة حرص والدها أن يقوموا بها لفلسطين.

الزيارة الرابعة

وفي العام التاسعَ عشر، تقول الأسطورة، أنك تتعلمين كيف يغدو ابتلاع الدمع أليقَ بك وبهم، وأنك تنجحين في تحويل أسباب الدمع إلى حركة مفيدة، والمضيف النحيل شديد التهذيب في شقّته التي تبكي الهجر عاريةَ الجدران؛ لازالت عيناه ترسلان بعض الأسئلة الدهشة أو المذعورة، يضع كفّيه بين ساقيه.. يحاول بضمّ كتفيه ألاّ يشغل من الفضاء حوله أكثر مما يحتاج جسمه، يكرّر أن كل شيء على ما يرام، لم نستطع أن نحصل منه على أكثر من أي ممّن زرناهم من سجناء تدمر الذين أفرج عنهم قبل شهر: سجيننا (مثل الآخرين) بخير، لكنه قلق لانقطاع زيارتكم، ويوصيكم بإحضار نظارة وبخّاخ الربو.

نظارة، نظارة.. يعني صاروا يقرؤون، هذا خبر عظيم.. يعني هرم وتعبت عيناه.. طبعاً أليست الأنوار الشاحبة أربعاً وعشرين ساعة، طبعاً ألم يبكوا ويحدقوا في دنيا مختصرة فقيرة لا تتغيرّ.. أضجرت أعينهم من مهامها.. ألم يتأملوا عذابات بعضهم وبعض، الانكسار والسقوط في هاوية اللا معنى..

- الله معهم ماما، دائماً أخبار أبي مشجعة..

كأنّا فرحنا كثيراً بخبر النظارة، ليس لأن سجيننا صار يقرأ فحسب؛

بل لأنا سنحمل إليه شيئاً يحتاجه فعلاً، لا يقوم على تخمين ولا تقليد.

وبعد ثلاث زيارات إلى تدمر تكتسبين خبرة طيبة، وتغدو بعض الأعمال رتيبة مألوفة: المرور على الصيدلية، وتبلغ بنا الجرأة أحياناً أن نقول: أخي.. نريد بعض الأدوية لسجين منذ أربعَ خمسَ ستَّ تسعَ عشرةَ سنةً.. ونجد التعاطف والنصح بصوت يشبه الهمس: هذا للسعال وهذا للالتهابات وهذه فيتامينات وهذه مسكّنات، ونضيف نحن معجون الأسنان والفراشيّ..

ومن السمّان الذي يكاد يبيع كل شيء نشتري الحليب المجفف وموادَّ غسيل وتنظيف وسكّراً (ويجب خلط الحليب بالسكر حتى لا يصادره أو يسرقه العسكر، هكذا قال لنا المجربون منذ الزيارة الأولى).

من البيت سنحمل كلّ ما تبقّى من ملابسه القديمة وبطانية أخرى ومناشف وجوارب سميكة، ولو اضطررنا إلى شراء جديد فيجب أن نغسله وننزع أوراقه، ربما شكُّوا أنا نكتب عليها للسجين رسالة حزن أو حب أو قلق، وغيرَ ذلك: قد يطمعون بالجديد فلا يتركونه لصاحبه..

هذه المرة نضيف النظارات، سنأخذ اثنتين بدرجتين مختلفتين فنحن لا نعرف كم خسر من بصره.

لا تنسَوا هُويّاتكم، لا تأخذوا طعاماً مطبوخاً، لكنّ هذه الزيارة بواسطة، فلنجرّب حمل الحلوى.. والدنيا عيد مع أنهم في الزيارة الأولى أعادوا التمر والعسل.

وصاحب الميكروباص الآدميّ الطيّب صار يعرفنا، يقصّ علينا قصصه في الذهاب، ويواسينا في الإياب، لم نغيّره منذ الزيارة الأولى قبل ستّ سنين.. يصل إلى باب بنايتنا في السادسة والنصف.. توقيت يخفف عنك فضول العابرين، ويَمُدُّك بيضع وقفات على الطريق.. نقاط أمنية.. ينزل السائق يدسّ شيئاً في يد شرطيّ ثم يعود: خَطِيَّة لم يفطر بعد، تلوح الأسوار حوالي العاشرة والنصف.

إلى حدّ ما تحفظين الطريق بعد ثلاث زيارات، سهوب وتلال وجبال.. وتراب صامت سادر.. قد تعلوه بعض الأعشاب، لا تثير لوحات الطبيعة الفقيرة التي ترافق هذه الرحلة الخرافية ودّاً ولا نفوراً ولا فضولاً.. تتدخّل الغيوم أحياناً فتبرز الجبال في هيئات قد تلفت انتباهك، وفي أحيان أقلّ تخضرّ الأرض فتأنسين وتحسّين أنها تكرمك وتخفّف عنك، تلتوي الطريق وتعلو وتنخفض لا تكتم عمرها ولا حالها.. تتأمّلين البيوت القميئة الكئيبة فتحمدين الله وتتمنَّين لأهلها حياة أجمل، تراقبين قطار الفوسفات يقطع الصحراء بحزن واعتذار، مرةً من زمان سبق زمان الأمومة والسجون، ركبتِ قطاراً من دمشق إلى الزبداني، شق أمواجاً من الخضرة.. وألواناً من العيون الجميلة الضاحكة التي تترصّد ركّاب القطار برشّاش من الماء.. لِيصخبِ الجميع.. ليفرحوا الجميع.. لم تكوني تعرفين تدمر إلا في كتاب التاريخ الأسمر.. صوره لا تقول شيئاً، سطوره تقول: امرأة كانت ملكة.. حكمت الرجال، لعل طوابع البريد كانت أفصح في وصف تدمر.

من هنا طريق العراق، إلى نقطة (أبو الشامات) على حدودنا معها.. وما معنى هذا، تمنّينا كثيراً أن نزور العراق.. لكنها البلد الوحيد المستثنى على جوازاتنا.. تُكتب أسماء البلاد المسموحُ بزيارتها على صفحة، غالباً بخطّ غاضب ضجِر، وينطلق سهم بعد عبارة البلاد العربية متجهاً إلى عبارة: عدا العراق.. سقى الله أيام التمثيليات العراقية التي غزت شاشتنا مدةً وبكثافة، فأحببناها.. تعلّمنا العراقيّ!

تبرز رؤوس النخيل بالتدريج.. بساتين النخيل عن يمينك، ثم وعلى الضفة الأخرى للطريق المهترئ ترَين الآثار.. وكلَّ مرةُ يقال لك: تلك بقايا قصر زنوبية هناك، على تلك التلة.. (طظ)، بعد زيارتنا الأولى أصرّ قريبنا الحنون الذي لابد أن يرافقنا كلَّ مرة، ولا يدخل معنا بالطبع، على أن نتجوّل بين الآثار وبين أشجار النخيل، لعل الطبيعة تمتص هذه الصدمة.. لكنا لم نكفّ عن البكاء.

لا أصدق أنا حصلنا على زيارة في شهر، ودون تقديم طلب بالبريد.. الله يجزيهم الخير أولاد الحلال (لعلهم).. الظاهر أنا فعلا نثير الشفقة - ياماما.. عمو أبو عامر تدخّل أخيراً، بعد تسعة عشرَ عاماً تدخّل.

- الحمد لله.. الحمد لله يا بنتي.

بعد قليل ننعطف ندخل البلدة، نمرّ على مركز ما، ننعطف يميناً، نجد لافتة السجن، نستمرّ.. تلوح الأسوار ونقاط الحراسة ورؤوس شجر.. نتوقّف عند باب البيت نفسه، نستأذن في دخول حمّام.. نجد البلاط يُشطف وينشَّف.. ونجد دورة المياه الإسمنتية نظيفة.. ونقرأ

في عيني صاحبة البيت بلباسها القروي ووجها الملوّح ما نريد: لكم سجين هنا، نعم.. والله نحن أيضاً فلان قريبنا سجن هنا، عسكريّ.. نشكرها في سرّنا أكثر كثيراً مما جهرنا به.

هذه المرة كان الزوار كثُراً على غير ما رأيت قبل ثلاث سنوات.. ينتشرون في العراء البارد مثل أيّ كانون.. قرويّون وقرويّات وبدو وأهل مدن.. انتشروا دون نظام باتجاه السجن.. وأعينهم معلقة بالسور وبالبوابة وبكل سيارة أو قادم أو حركة تبدأ من هناك.. كأن القلوب تمارس نوعاً من البوح والشكوى قبل أن تنعم العيون بالرؤية، نقترب راجلين لننضمَّ إليهم، ثمة مناديل تتجه إلى عيون النساء.. ثمة وجوه تنقبض وتحمرّ وتُشيح بالبصر عن الفضوليين. ثمة رجل يهدئ امرأة أقعت فوق التراب، وامرأة تهدّئ رجلاً يتكئ بعمره على كتفها، ثمة كهلة تحيط بذراعيها كتفَي صبية، كنّا مثلهم..

يركض عسكري بقبعة حمراء، لقد صار بعمر الأولاد، نضر وسيم مذعور يأخذ الهُويّات.. يطلب عدم الاقتراب.. والانتظار، وكأنا لا نتقن الانتظار.

ألتصق بالبنت وطفلتها، قطرة من عزاء تعيد بصرك إلى السماء من جديد:

ـ يا حبيبتي.. هذه الطفلة دخلت التاريخ..

تبتسم ابنتي التي تزداد عيناها دفئاً بازدياد حزنها، وتضم وليدتها

التي لم تكمل شهرين، رجوتها كثيراً ألا تحضر.. تقترب بوجهها منها حتى تكاد تخفيه في الغطاء الأبيض، لعلها تبكي.. لعلها تجدّد اكتشافها سحر عطاء أعاد الألق إلى شبابها، لِتكتشفْ ولتتخففْ حبةُ القلب هذه من أحزان عرفتها قبل ما اعتدنا أنه الأوان.. وكأن للظلم منهجنا واعتياداتنا! علّقت دون أن ترفع رأسها:

ـ غداً نحكي لها ونقول لها أنت بطلة.

بعد اجتياز حاجز الحراسة يكون التفتيش عن يسارك.. ينقلب متاع السجين وينفرط نظامه ثم يُركم في البطانية ويلفّ ليتحول إلى حمل لا شكل له، يحمله الابن أو الأخ، يُتاح للنساء ترف توفير طاقتهن من أجل الدقائق القادمات، ننطلق إذن بأقدام وركب صارت أثبت؛ نحو بوابة الباحة التي تقودنا إلى غرفة صغيرة، يكاد يزيدها عتمةً مصباح شاحب مغطّى بالغبار وخيوط العناكب السجينة، الأرض والجدران قبيحة بلا لون.. ووراء حاجزين بينهما ما يقارب المترين نقف.. أمامنا حاجز من المعدن المخضرّ بفتحات مربعة صغيرة.. وأمام السجين حاجز بقضبان أكثر تباعداً.

من باب منخفض صغير من جهة حاجزه، سيدخل مطأطئ الرأس بعد دقائق قليلة، تبحث فيها الألسن عن لعاب فلا تجد، وتبحث فيها الدموع عن مفّر فتُكَفُّ بقسوة، هذا عهد ألا نبكيَ أمامه، دعونا نفعلْ في البيت ما نشاء.

سيدخلونه شبهَ محمول بين ذراعي عسكريّين لا يغادران..

ستفاجئين بشحوبه الرماديّ مثل كلّ مرة، بصغر حجمه بتهذيبه وانكساره بأسئلته التي لا تتغير وأخباره التي لا تتغيّر.. هذه المرة سنعتذر عن اللذَين لم يحضرا لأنهما مسافران.. وسنعتذر عن التأخير لأن أذون الزيارات توقّفت. سنقدّم المال المباح ولا نتفوّه إلا بالكلام المباح.. ثمّة أخبار طيبة. هذه حفيدتك الأولى.. بنتنا الأخرى في الجامعة.. الولد أنهى الثانوية.. أشياء كثيرة يمكن أن تحدث في ثلاث سنين، وهو بخير ولا ينقصه شيء أبداً.. وليس علينا إلا تبليغُ السلامات والتطمينات..

تسلّق العسكري حاجزنا وناول النظارتين عسكرياً آخر دخل الممر الفاصل بيننا من باب في الحاجز الآخر.. حركة غريبة تتكرّر كل مرة، رغم إمكانيّة استخدام الباب الذي أدخل منه السجين.

جرّب سجيننا النظارة الأولى.. لا، الثانية لا بأس ليتها أكثر.. طلب من المال أكثر مما توقّعنا ومما حملنا، هل أحضرتم بخّاخ الربو..

كان ثمة فرصة للزَّهو هذه المرةَ بهذا الإنجاز: زيارة قفزت فوق القوانين وفوق سجن القابون في دمشق (كنت أشعر بالامتنان أني لم أر وجه ذلك الضابط الذي كان يسلّمني الإذن بعد أداء عشر مهامَّ يبدؤها لدى سقوطي في مقعد يواجه مكتبه).

وكان ثمة فرصة أكبر لتبادل العبارات إذ سمحوا بوقت إضافي، لكنّا لن نجد كلاماً (كأنما تبرمجنا على أربع عشرة دقيقة).. كان.. لكن نسينا بخاخ الربو.

تبخّرت ذابت خجلت نسمة فرح راودتنا ونحن نتخيل أنا سندخل على قلبه نوعاً أو قدراً أو محاولة للسرور.

وطريق العودة أطول دائماً.. لا داعي لانتهائه ولا نرى منه شيئاً.

ما تبقى من الحياة

ركنا السيارة ببهجة لم يُخفِياها في المصفّ الذي كانت تغادره للتوّ سيارة أخرى.. في شريط طويل من المواقف الموازية للمُتنزّه المقصود:

ـ ماشاء الله يا أبو سهيل.. حظّنا اليوم حلو.. وأضافت وهي تفتح باب السيارة:

ـ يقولون أن الإنسان حين يتيقّن في داخله أنه سيجد حلاً أو خلاصاً فسيجد.

يفاجآن دائماً بكثرة الناسِ والأطفال.. ويستغربان أن هناك من يفوقُهما سرعةً في مغادرة البيت يومَ الجمعة رغم أنهما خاليان تماماً من أيٍّ من مسبِّبات التأخير.

توجّهت قبله نحو بوابةِ الدخول الكبيرة ذاتِ المصراعين المفتوحِ أحدهُما عن آخره، محاولةً أن تمشي بهمّة في حذائها الرياضي، ثم التفتت إليه وقد تأخر، نسيت كعادتها أن عليه فتحَ صندوق السيارة لجلب بساط بألوان المهرجانات كانا اشترياه قبل شهور على هذا الرصيف نفسه، من الحبشية الغاطسة في مزيد من السواد في عباءتها وخمارها، الفارشةِ بضاعتَها الرخيصة التي تبدأ بقوارير المياه والمشروبات الغازية ولا تنتهي بالبالونات والألعاب البلاستيكية والمأكولات المحفوظة.

انتظرت شراءه التذاكرَ من النافذة المخصصة للنساء لكنها خالية، وهي تتمشّى على مهل بين الحاجزين المعدنيين، انضمّ إليها وقدَّم التذكرتين للحارس ذي اللباس الأحمر الخمريّ..

ـ لِنسر باتجاه البحيرة، نشتري شيئاً نأكله ثم نجلس قربَ الماء..

ـ وأنت واثقة بأنهم يبيعون أكلاً.

ـ نعم هذا ما أذكره.. والله جوعانة.

ـ طبعا انشغلتِ بالهواتف على الفطور.

ـ ماذا أفعل.. بناتي

ليس في الحديث حدّة ولا بوادر خلاف..

مُتنزّه السلام، والسلام تسمية شائعة جداً هذه الأيام، حديقة بديعة التصميم والتنفيذ.. واسعة مترامية الأطراف لا يمكنك أن ترى لها نهاية، تمتدّ شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً.. فيها بحيرة اصطناعية يعلوها جسر خشبيّ جميل في انحنائه وألوانه.. تتوزّع فيها خضرة العشب بأسلوب فنيّ تتقاطع خلاله ممرّات حجرية أنيقة، وتفاجئك أحياناً مياه تترقرق فوق حجارة نظيفة تتفاوت مستوياتها فيزيد ذلك تدفقَ الماء وحركته جمالاً وطبيعية.. رغم أنه لاشيء طبيعيّ.. وقبل ربع قرن من الزمان في مدينة الرياض كانت مشاهدُ كهذه حلماً يُقتنى في بطاقات الأعياد والمراسلات العجلى..

ـ كم تغيَّرتِ الرياض..

ـ نكاد ننسى أننا وسط الرمال

ـ لا تنسَ أنك في آذار.. لفح جهنّمَ آتٍ..

لم يظهر أي تذمّر إذ اكتشفا أنه ليس في الحديقة أكل بالمعنى الذي يتشهيان، إنما هي مأكولات خفيفة لاغنى عنها للأطفال والفتية والفتيات الذين ينتشرون تحت ظلمة خفيفة، تبدّدها مصابيحُ الإنارة المنثورة بين الشجر والنخيل بانتظام..

يتراكضون، يتصايحون، أكثرهم خلع حذاءه منتشياً بملامسة قدميه العشب والماء والحصى والحجر..بعيداً وأحياناً أمام عيون الأمهات اللواتي أصبحن أصغر منها كثيراً، يوم كانت تبحث لأبنائها عن مكان يلعبون فيه دون أي نوع أو أي قدر من الممنوعات الأموميّة.. ولم يكن ذلك سهلاً.

بعد شراء عرنوسين من الذرة المسلوقة دون زبدة وزجاجتَي ماء وقدْر من الموالح؛ فرشا بساطهما على مرتفَع خفيف أبعدَ عن البحيرة التي تَحلّق الناس حولها بصورة لا تلائم أن يندسّا بينهم.. وأبعدَ عن صياح الأطفال الهازج الصادح صادراً من المراكب الجميلة التي أخذت هيئة البجع المزدهي بألوان شتى تنعكس على ماء البحيرة. أمامهما تماماً افترش شابّان بساطاً بينما أُوقفت على مقربة عربةُ أطفال معدّةٌ للجلوس، لم يكن ثمةَ نسوة، بينما فصل جسد صغير مغطّىً ببطانية ملونة بين الشابين.. في البداية لم يكن الرأس ظاهراً.

ـ هناك جلسنا وتعشَّينا مع سهيل، على ذلك المرتفع المطلّ على البحيرة، لنذهب إلى هناك.

ـ جلسنا وخلصنا، لا أريد الابتعاد أكثر.

انهمكا في أكل الذرة دون كلام، ثم توقفت عن الأكل وقالت:

ـ تعرف.. والله خلَونا مبكّرَين.. أحسّ أني تقاعدت مبكرة

ـ قولي الحمد لله، لديك ما تفعلينه في البيت..

ـ لا أحد ينتفع بي ولا بوقتي، والله حرام.. إرادة الله أن يبتعدوا معاً.

ـ الحمد لله كلهم بخير.

ـ والله لا أستطيعُ حتى أن أتخيّلهم.. لا أريد ..أتجنّب تصوُّرهم هم وصغارهم.. وبخاصة سهيل.

وظنت أنه أحس بغصّتها.

ـ لو كانوا حولنا الآن.. واحد فقط.. ليلى وأولادها.. آه يا حبيباتي..

التقطت دمعتها بظهر سبابتها اليسرى والتفتت إليه.. غير أنه كان يركّز على أكل الذرة.. ضحكت ضحكة خفيفة وعلّقت:

ـ أنت تأكل بصورة أفقية وأنا آكل بصورة عمودية.. ترى أيهما أفضل.

ابتسم واستمرّ وهو يتأمل ما بين يديه. ساءها أن طريقته بدت أنظفَ وأكثر انتظاماً.. حاولت أن تنظّف ما بين ضرسين بظفر خنصرها الأيمن بعد أن نقلت العرنوس إلى اليسرى.

ـ هذه الأكلة لم تعد تناسب أسناني.. يللا.. انتهينا على أية حال.

الشابان أمامهما يتحدثان دون انقطاع.. ثمة حافظتان للقهوة على زاوية البساط الأبعد.. من تحت الغطاء بدا الآن وجه قمحيّ نحيل ورأس بشعر أسودَ لطفل لعله تجاوز الخامسة.. لازال مغمضَ العينين، لكن على عبوس.

خطر لها أن الجوّ لطيف فعلاً.. وقد يغري طفلاً متعباً بإغفاءة.. لكنّ الطفل نائم تماماً.. في مكان حافل بمغرِيات اللعب الطبيعيّ بكلّ صورِه، وبمتع بريئة شتّى تصعب على طفل مقاومتُها:

ـ ما رأيك في جولة بالقطار قبل أن نغادر.. لم نركبه ولا مرة، يريك المتنزّه كلَّه.

ـ عندما تزورنا إحدى البنات سنركب معاً.

ـ معقول.

اقتربت من بساط الجوار امرأتان لطيفتا الحجم.. بالسواد يلفّهما فضفاضاً كاملاً مثل معظم المتنزِّهات، فأنت هنا قريب من الأحياء الشعبية التي لعل بناتِها لم يجرؤن بعد أو لم يَسِغن العباءاتِ المزركشةَ الضيقةَ حيث يجب أن تكون واسعة، الواسعةَ حيث يحسُنُ أن تضيق.

بوصول المرأتين كشف أحد الشابين عن الطفل النائم..

وجدت نفسها تنظر إليه بإمعان، إذ انتبهت الآن فحسب إلى أنه ثمةَ شيءٌ غير طبيعي فيما يجري أمامها.

حين حمله الشابان متعاونَين ارتخى رأسه بصورة مفاجئة يتّضح فيها عدمُ التحكم، وحين وضعاه في العربة، تبيّن الآن أنها أقربُ إلى كرسيّ مصنوع بطريقة خاصة جداً بحيث يمكن تثبيت رأس الطفل الفاغرِ فاه، بين مايشبه وسادتين على صورة أسطوانتين رقيقتين نسبياً، كما يمكن تثبيت قدميه على درجة مرتفعة قليلاً عن الأرض.

ثبَّتا الطفل، تدلَّت ذراعاه بارتخاء خارج ذراعَي العربة، حملت كل امرأة حافظة قهوة مع حقيبة يدها، طوى الشابان البساط بهدوء وإتقان على طوله ثم على نصفه. تركوا وراءهم كيساً من النايلون زهريّ اللون مفتوحاً. دفع أحدهما العربة أمامه باتجاه الجسر الخشبي الذي يؤدّي إلى بوابة أقربَ للخروج.

نهض صاحبانا، بعد أن جمعا الفضلاتِ في كيس، حملت حقيبتها بالكتاب الذي لم تفتحه، حملت قارورة الماء والموالح، رمت كيس الفضلات في إحدى السلال الكثيرة المعلقة بالأعمدة فلا يمكن ركلها ولا خلعها، طوى زوجها البساط وحدَه دون أن تراقب بإعجاب يشوبه قدْر من الأسف، كعادتها، نشاطه وسرعته في كل ما يفعل.

كانت تشيِّع ببصرها ظهور الشبّان الأربعة: بياضان وسوادان يبتعدون بعربتهم المختلفة وحِملِهمُ المختلف.

انضمّ إليها زوجها على بداية الجسر الذي يؤدّي إلى بوابة أقربَ للخروج.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
1- بلاغ ضدّ المواطنة الرقيقة	7
2- المشاهد لا تنتهي	51
3- لم لا تأتي إلينا	59
4- لا غربةَ بعد	65
5- أخبار طيبة	69
6- جدتنا دائماً	81
7- النذر	99
8- عودة القافلة	103
9- عرض في حَزيران	107
10- سوزي تكتب وصيّتها	117
11- الزيارة الرابعة	123
12- ما تبقّى من الحياة	131